كلية اللغة العربية بأسيوط

المجلة العلميـة

التشبيهات بالإبل وأحوالها

فى

الحديث الشريف

إعداد

د/ محمد احمد أبوزيد حسن

(العدد الواحد والثلاثون – الجزء الثاني ٢٠١٢م)

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين سبيله إلى يوم الدين .

وبعد ؛؛؛

فإن البيان النبوى الشريف هو المصدر الثانى للتشريع الإسلامى بعد كتاب الله تعالى ، وهما مؤئل الدين ، وذخيرة المسلمين ، ولقد كان ﷺ متصلاً ببيئته غير منعزل عنها ، على دراية بما فيها من ثروة حيوانية وزراعية وأمور كونية ... وظهر ذلك جلياً فيما جاءنا من سنته المتواترة ، واستخدم ﷺ كل صور البيان والإيضاح لتوصيل رسالة الله تعالى إلى خلقه كاملة غير منقوصة ، وكانت الإبل التى قامت عليها حياة العربى مما اشتملت عليه البيئة العربية ، وكان التشبيه أحد الوسائل التى سلكها ﷺ لأداء المعانى وتوصيلها إلى أصحابه ، وهذا البحث يهدف إلى بيان المعانى التى انتزعها ﷺ من الإبل وأحوالها ، والتى كساها ثوب التشبيه وألبسها صورة المألوف عند العرب ، وجاء البحث فى مقدمة وتمهيد ، وعرض مبسط لموضوعات البحث على النحو التالى: ما جاء فى سياق النهى عن فعل أمور قد تقع من الإنسان فى الصلاة ، فى ذكر حرمة الولاة وبيان مهمتهم الشاقة – فى النهى عن التشبه بالحيوانات – بيانه ﷺ لندرة الأخيار من الناس – منزلته ﷺ بين أمته يوم القيامة وعقوبة من غير شرع الله – الحث على قراءة القرآن والتحذير من تركه – طواعية المؤمن – حكم الحيوان الإنسى إذا توحش – فرحة الله بعبده التائب – المشطة الميلاء وعقوبتها – بيانه لما يفسد الصلاة – من الأساليب التربوية التعليمية له ﷺ – فضل التبكير إلى الجمعة – موقف الناس من الدنيا وزينتها – هلاك يأجوج ومأجوج ، وتركزت الدراسة

على بيان دور التشبيه المنتزع من البيئة فى الكشف عن المعانى التى أراد ﷺ توصيلها لأصحابه .

ثم جاءت الخاتمة مشتملة على أهم نتائج البحث وأعقبها الفهارس ، والله أسأل أن يوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه إنه أكرم مسئول .

﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود ٨٨] .

تمهيد

الإبل وأهميتها فى حياة العربى

الحيوان مخلوق يشترك مع الإنسان فى كثير من الصفات ، سخره الله فى الكون لتحقيق آيات كثيرة لا نكاد نحيط بها ، منها خدمة الإنسان فى حياته المعيشية ، والاستدلال به على عظمة الخالق جل وعلا ، وكثر ذكر الحيوان فى الشعر العربى ، فما من قصيدة إلا وللحيوان شأن فيها ، وكان العرب أكثر خبرة ووعياً به ، فكثر تأليف العرب فيها ، ويعتبر كتاب (الحيوان) للجاحظ ت ٢٥٥هـ أوسع دراسة عن الحيوان ، ويذكر الدكتور/ عبد السلام هارون – محقق الكتاب – أن الجاحظ حين تحدث عن الحيوان أراد أن يقول: (إن البحث فى شأن الحيوان ضرب من ضروب التعبد ، ولون من ألوان البحوث الدينية التى تنتهى بصاحبها إلى معرفة عظمة الله وعظم ما أبدع) [١] .

والإبل من أبرز الحيوانات التى عرفها العربى منذ القدم ، فكانت أول حيوان استأنسه ليرافقه فى حياته الصحراوية ، ويقاسمه متاعب العيش فيها ، تربطهما صداقة حميمة من قديم الزمان ، حتى إذا ذُكر أحدهما دل على الآخر ، وكانت قوته وعدته[٢] .

---

(١) مقدمة كتاب " الحيوان " للجاحظ ٢٣/١ ط ثالثة ١٩٦٩م ، المجمع العلمى ، بيروت .

(٢) فهى (حيوان العربى الأول ، عليها يسافر ويحمل ، ومنها يشرب ويأكل ، ومن أوبارها وجلودها يلبس وينزل ، فهى مورده الأول للحياة ، ثم إن لها خصائص تفردها من بين الحيوان ، فهى على قوتها وضخامتها وضلاعة تكوينها ذلول يقودها الصغير فتنقاد ، وهى على عظم نفعها وخدمتها قليلة التكاليف ، مرعاها ميسر وكلفتها ضئيلة ، وهى أصبر الحيوان المستأنس على الجوع والعطش والكدح وسوء الأحوال ، ثم إن لهيئتها مزية فى تناسق المشهد الطبيعى المعروض ... وهى بين أيديهم لا تحتاج منهم إلى نقلة أو علم جديد) ، فى ظلال القرآن للشيخ سيد قطب ٣٨٩٨/٦ ط ١٢ – دار الشروق .

والجاهليون – فى غالبيتهم – عاشوا بين ربوع الصحراء متفرقين مبعثرين فى أنحائها ، على هيئة قبائل يعتمدون فى حياتهم على الحيوانات ومنها الإبل ، والتى كانت فى نظرهم لا تقدر بثمن ، لأن فيها حياتهم ، يأكلون لحومها ، ويشربون ألبانها ، ويتخذون من أوبارها ملابسهم وخيامهم وبعض أثاث بيوتهم ، وكانت الإبل فوق هذا إلى جانب الخيل وسيلة الانتقال والمواصلات فى هذه الصحراء الواسعة الأرجاء ذات السبل الملتوية والطرق المجهولة المهجورة ، كما كانت من أهم العدد الضرورية للقتال ، يتخذون منها رواحل يركبونها ، ويحملون عليها الأمتعة والسلاح والزاد والزخيرة ، ويجنبون الخيل ادخاراً لنشاطها وحفاظاً على قوتها لوقت القتال ، حتى إذا ما قاربوا القوم المقصودين بالغارة نزلوا عن الإبل ، ولبسوا السلاح وركبوا الخيل ، كما كان العربى يتخذ من الإبل وسيلة تحمله للذهاب إلى قومه إذا كان بعيداً عنهم .. وكان إذا توقع شراً أو توجس خطراً ، أو أحس تهديداً اعتمد عليها فى الرحيل إلى مكان أكثر أمنا ، كما كان يعتمد عليها فى التنقل طلبا لمساقط المياه ، وأماكن المرعى ويقطع بها المسافات الشاسعة المقفرة وقت الهاجرة ، فلا تتعب ولا تكل ، لما تتمتع به من قوة تحمل .

وكانت العرب تدفع منها ديات القتلى حسما للنزاع ومنعا لحدوث معارك أخرى ، لهذا كله ظهرت أهمية الإبل للعرب فى السلم والحرب ومن ثم أصبح لها فى نظرهم قيمة عظمى ، سموها المال ، فكانت ثروة الشخص تقدر بعدد ما يملكه من هذه الحيوانات .

ونظراً لقيمة الإبل وأهميتها فى ذلك الوقت كان الناس يعتزون بها ، ويستكثرون منها بكل ما يستطيعون ، ومن ثم كانت من أسباب الغزوات طمعا فى أخذها غنائم ، ولهذا كانت الإبل تحاط بسياج قوى متين ، وتصدى أصحابها لصد المغيرين ، ودفعهم بالسلاح ، محافظة على مالهم ، وقوام حياتهم ، ولهذا نجد

الناقة قد ظفرت بنصيب وافر من الشعر العربى ، ربما لم يظفر به حيوان آخر من حيوانات الصحراء [١] ، وجاء حديثه عنها ذو مناحى مختلفة ، فوصفها فى صلابتها وضمورها وسرعتها ... إلخ مما يدل على شدة ارتباطه وتعلقه بها .

وينبغى أن نشير هنا إلى أنه لأهمية الإبل ومكانتها لفت القرآن الكريم الأذهان إليها ، فعندما أمر الله عباده بالنظر فى مخلوقاته الدالة على وحدانيته ، بدأ حديثه بالإبل ، ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [٢] فالخطاب وإن كان بصفة عامة للناس إلا أنه موجه إلى البدو ، وللإبل عند البدو مكانة خاصة [٣] ، كما أشار القرآن إلى منافع الإبل بقوله ﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [٤] .

---

(١) ينظر: الصراع بين الإنسان والطبيعة فى الشعر الجاهلى د/ محمد الكومى ، ص٦٤ ط الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٩م ، ولا نبالغ إذا قلنا إن الشاعر العربى كان لا يتصدى للوصف فى قصيدة حتى يتحدث عن الناقة ، وبلغ من تعلقه بها أنه فتن بها فتنة بعيدة (فوقف يتأملها ، ويردد بصره فيها ، وما أكثر ما اقترب منها يحدق فيها ويغلو ويسرف فى التحديق ، ثم يصفها عضوا عضوا ، ويصف هيأتها وطباعها وما يداخل صدرها من أحاسيس ومشاعر ، ويتحدث عن علاقته بها وموقفه منها ، ويفيض فى الحديث عن أحوالها) ، الرحلة فى القصيدة الجاهلية د/ وهبة رومية ، ص٦٢ ط ثالثة ، مؤسسة الرسالة – بيروت ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، وينظر: العمدة لابن رشيق ، تح/ محمد محى الدين عبد الحميد ٢٩٦/٢ .

(٢) الغاشية ١٧ .

(٣) قال الصاوى:"وخصت لكثرة منافعها فإنها تسير مسافة بعيدة وتحمل عليها وتأكل لحومها وتشرب ألبانها فهو ينكر عليهم غفلتهم " حاشية الصاوى على الجلالين ٢٦٥/٤ ، الإيضاح ص١٦٧ .

(٤) النحل الآيات من ٥ : ٧ .

وأوضح ﷺ أن الإبل واحدة من الأمور التى أوصى ﷺ باللحوق والانشغال بها عند وقوع الفتن فى آخر الزمان ، فإن ذلك قد يساعد الإنسان على أن يسلم من شر الفتن [١] ، كما أوضح ﷺ أن تطور الحياة برعاة الإبل ، وانتقالهم من حياة البداوة إلى الاستقرار والتطاول فى البنيان علامة قرب الساعة [٢] .

التشبيهات النبوية والإبل

لقد تعددت مصادر الصور البيانية عند العربى وتنوعت بين الإنسان [٣] والطبيعة الهامدة أو الحية [٤] لأن مشاهد البيئة تنطبع فى النفس ، حتى إذا تحولت الأفكار وارتبطت بالصور البيئية استيقظت الانطباعات النفسية ، فجسدت الأفكار وأخرجتها إلى الذهن وكأنها صور محسة .

---

(١) قال ﷺ : " إنها ستكون فتن ، ألا ثم تكون فتنة القاعد فيها خير من الماشى فيها ، والماشى فيها خير من الساعى إليها ، ألا فإذا نزلت أو وقعت فمن كان له إبل فليلحق بإبله... " صحيح مسلم كتاب: الفتن وأشراط الساعة ، باب: نزول الفتن كمواقع القطر .

(٢) ففى سؤال جبريل للنبى ﷺ " متى الساعة ؟ قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، وسأخبرك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربها ، وإذا تطاول رعاة الإبل البهم فى البنيان " صحيح البخارى ١٩/١ حديث رقم ٤٨ ، كتاب الإيمان ، باب: سؤال جبريل للنبى ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة وبيان النبى له .

(٣) بيئته وطعامه وشرابه وملابسه ، وأنواع الزينة وألعابه ولهوه وملذاته وأدواته المنزلية وصفاته وأخلاقه .

(٤) كالسماء والأرض وما فيهما من ظواهر طبيعية كالشمس والقمر والنجوم والنور والظلام والصحراء والجبال والصخور والرمال والماء والمطر والسحاب والرعد والبرق والنبات والأشجار والخشب والنار والريح ... والمعدات الحربية كالدرع والرمح والسيف والسهم والقوس والبيضة والسوط ، ومتنوعات كالجن والغول والمرض والدواء والشفاء والحيوان والطيور والحشرات والزواحف .

والتشبيه من أسبق مباحث البلاغة وأولها ، وقد تتابعت فيه أقوال العلماء والنقاد ، ودارت حوله مباحث كثيرة [١] ، وسلك العلماء فى التعرف على أسراره مسالك شتى ، ولقيمته فى التعبير فقد عظمه أهل البيان ، قال المبرد ت ٢٨٥هـ (والتشبيه جاء كثيراً فى كلام العرب ، حتى لو قال قائل : هو أكثر كلامهم لم يبعد) [٢] وقد عده قدامة بن جعفر ت٣٣٧ هـ غرضاً من أغراض الشعر [٣] ، وقال عنه الإمام عبد القاهر: (هل تشك فى أنه يعمل عمل السحر ...) [٤] ويذكر ابن الأثير ت٦٣٧هـ أن قيمة التشبيه ترجع إلى المبالغة والبيان والإيجاز [٥] فـ(فائدة التشبيه الكشف عن المعنى المقصود مع ما يكتسى من فضيلة الإيجاز والاختصار) [٦] وقد وقد عظم علماء البلاغة أمر التشبيه لكونه أعلق بالطبع وألذ بالنفس [٧] .

والتشبيه أسلوب تصويرى يستخدمه المتكلم ليرسم به معانيه ، ويجسد به أفكاره حتى تنكشف لقارئه وسامعه انكشافا وجدانيا ، ويتأثر بها تأثراً مماثلا ، وهو إنما يأسر القلوب ويستأثر بالنفوس حين ينقلها من وحشة الخفاء إلى أنس الوضوح والجلاء .

---

(١) البلاغة القرآنية د/ محمد أبو موسى ، ص١٨٥ ، ط مكتبة وهبة .

(٢) الكامل فى اللغة والأدب ، تح/ محمد أبو الفضل ٩٧/٢ ، ط نهضة مصر ١٩٨١م .

(٣) نقد الشعر ، تح/ خفاجى ، ص١٢٤ ، ط دار الكتب – بيروت .

(٤) وقال عن قيمته: (وأما التشبيه فهو من أشرف كلام العرب ، وفيه تكون الفطنة والبراعة عندهم ، وكلما كان المشبه منهم فى تشبيه ألطف كان بالشعر أعرف ، وكلما كان بالمعنى أسبق كان بالحذق أليق) ، أسرار البلاغة ، تح/ شاكر ، ص١٣٢ ، مطبعة المدنى .

(٥) ينظر: المثل السائر ، تح/ محمد محيى الدين ١٢٢/٢ ، المكتبة العصرية – بيروت .

(٦) الفوائد المشوق المنسوب لابن قيم الجوزية ، ص ٨٢ ، ٨٣ .

(٧) الإشارات والتنبيهات لعلى الجرجانى تح / عبد القادر حسين ، ١٧١ ط دار النهضة بمصر .

والنبى ﷺ لم يكن بعيداً عن بيئته منعزلا عنها ، بل كان متصلاً بها ، وعلى دراية واسعة بما فيها من ثروة حيوانية وزراعية ومظاهر كونية وظواهر موسمية وغير ذلك ، ووظف هذا كله فى بيان المعانى التى أرادها ، فقد استخدم ﷺ كل صور البيان والإيضاح فى محاولة لتوصيل ما أمر ببيانه إلى أصحابه ، والتشبيه واحد من أهم الطرق التى سلكها ﷺ فى أداء المعانى ، لأنه أقرب إلى تصوير الواقع ، وله أثر عظيم فى توضيح الفكرة وعرضها عرضا جميلا ، مما يجعلها أعظم تأثيراً فى النفوس ، وأشد إثارة للعواطف والإحساسات ، ولذا فقد اتخذه ﷺ وسيلة تصويرية فعالة فى سبيل الوصول إلى هدفه من شغل الظاهر والباطن وامتلاك النفس بكل ما فيها ، ولا سيما أن رسالته التى جاء بها تهدف إلى تجديد القيم وتعديل المفاهيم ، والتعريف بأنماط المعانى التى لا يستسيغها العقل الدارج على ضدها إلا مأخوذا بقهر العاطفة وتأثر الوجدان يثنيانه ليعيد النظر ويختبر الدليل .

وقد جاءت تشبيهاته ﷺ لتقرر ما أراده من معان ، وقد ألبسها صورة المألوف عند العرب منتزعة من بيئتهم ، ومستوحاة من حياتهم ، مما هو ماثل أمامهم ، ومألوف بالنسبة لهم ، ومعروف لديهم كى تكون قريبة للأذهان ، واضحة للعيان ، سهلة يسيرة .

والتشبيه أسلوب لغوى معروف ومشهور لدى العرب ، وقد سما به ﷺ ونماه ، حتى جاءت تشبيهاته ﷺ لوحات فنية منقولة بدقة وبراعة من البيئة التى يعيش فيها ويتفاعل معها ، فكان لهذه التشبيهات دورها فى تشخيص المعانى المجردة ، وصبها فى صور مرئية محسوسة فاكتسبت قوة ونصوعا .

والإبل واحدة مما كانت تشتمل عليه البيئة العربية من حيوانات فى عصور الجاهلية ، ومن يتأمل هذا المخلوق يشعر بعظمة الخالق ، قال تعالى:

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [1] والنبى ﷺ كان أكثر إحساساً وشعورا بآيات الله فى كونه ، ومنها الأنعام وتسخيرها ، ونظر النبى ﷺ فى الإبل ، وانتزع من أحوالها معان متعددة ، فقد جاءت الإبل فى البيان النبوى مشبها بها فى كثير من المعانى ، وسوف يتضح ذلك من خلال هذا البحث [2] .

(1) الغاشية ١٧ .

(2) حيث رأى ﷺ أن الإبل مثل الناس تتشابه فى كثير من الصفات وتتمايز فى كثير منها ، وأنها تتباين تباينا متسعا ، وأن منها الطيب النادر ، فشبه ندرة الأخيار من الناس بندرة الراحلة من الإبل .

ونظر فى الإبل من حيث ما فى طباعها من حب الانطلاق والتفلت والشرود ، فاستخرج من ذلك تشبيها بمن حفظ القرآن ، وأن من حفظه لابد وأن يظل قائما عليه ، وإلا تفلت منه وضاع كما أن من عقل الإبل ، لابد وأن يظل قائما عليها ؛ لأنها تحاول التخلص من قيدها ، فإذا أمكنها ذلك ضلت وشردت.

ونظر إليها من جهة طعامها ، وما تنتشى به من أنواعه ، فوجد أن منها ما يأكل كل ما وجد أمامه دون تمييز فتصاب بالحبط ، ومنها مالا ينبهر بأطايب الربيع ، فتأكل ما اعتادت عليه فتسلم ، وهذه هى آكلة الخضر ، فأخذ ﷺ منها تشبيها لمن ينبهر بالمال ، فلا يحسن التصرف فيه فيهلك ، وتشبيها لمن أوجد ضابطاً لنفسه تجاه هذا المال .

ونظر إليها من جهة شرودها عن جماعتها ومحاولتها الإقحام فى جماعات أخرى من الإبل فتحاول أن تأكل أو تشرب معهم ، ولكنها لا تجد إلا الطرد والدفع لأنها غريبة ، ولا تألفها الإبل الأخرى ، كما أن صاحب الإبل لا يتركها تشرب معهم لعدم أحقيتها ، فيبالغ فى دفعها وطردها ، وهذه الحالة جاءت تمثيلاً لذبه ﷺ لمن بدل وغيِّر فى سنته من بعده ﷺ عن حوضه الشريف ، إلى غير ذلك من المعانى .

١- فى سياق النهى عن فعل أمور قد تقع من الإنسان فى الصلاة

عندما أراد ﷺ أن ينهى أمته عن فعل أمور قد تقع من الإنسان فى الصلاة ولا تليق بها ، صور هذه الأمور المنهى عنها فى صور حسية ملموسة ، منتزعة من البيئة العربية التى يعيشون فيها ، منها ما وجدت صورته فى الطير ، ومنها ما وجدت صورته فى الحيوان خاصة السبع والبعير ، فانتزع من هذه الأشياء ما يكشف عن مراده ﷺ ، فـ (عن عبد الرحمن بن شبل قال: نهى رسول الله ﷺ عن نقرة الغراب ، وافتراش السبع ، وأن يوطن الرجل المكان فى المسجد كما يوطن البعير) [١] .

الحديث دعوة إلى ضرورة الطمأنينة فى الصلاة ، وألا يألف الإنسان موضعاً فى المسجد للصلاة فيه ، لا يصلى فى غيره ، وقد جاء الحديث فى أسلوب خبرى ؛ لأنه أنسب الأساليب للحكاية والخبر ، وقد بدأ بالنهى عن تخفيف السجود فى الصلاة تخفيفاً يفتقد الطمأنينة ، لأن ذلك يؤدى إلى بطلان الصلاة ، والصورة الأولى (نهى رسول الله ﷺ عن نقرة الغراب) فيها تشبيه وضع الجبهة على الأرض ، ورفعها سريعا كخطف الشئ بنقر الغراب ، والوجه السرعة المفرطة التى لا طمأنينة فيها ، ولا استقرار ، والتشبيه فضلا عن أنه جمع بين طرفين متباعدين ، فقد كشف عن الدقة والإحكام ، وإظهار الصلة بين الطرفين ، فالمصلى الذى لا يمكث فى سجوده بحيث تطمئن الأعضاء وإنما يسرع فيه سرعة مجاوزة للحد ، يشبه هيئة الغراب حين يضع منقاره فيما يريد أكله [٢] ، ولا شك أن التشبيه يصور

---

(١) سنن أبى داود ٢٢٠/١ ، كتاب: الصلاة ، باب: صلاة من لا يقيم صلبه فى الركوع والسجود .

(٢) يقول الخطابى موضحاً التشبيه فى هذه الصورة: (هو أن لا يتمكن الرجل من السجود ، فيضع جبهته على الأرض حتى يطمئن ساجداً ، وإنما هو أن يمس بجبهته أو بأنفة الأرض كنقرة الطائر ثم يرفعه) [عون المعبود ٣٥٧/٢ ، شرح سنن النسائى بحاشية السندى ٢٨٨/٢] .

الهيئة المتناسقة من طأطأة الرأس ورفعها سريعا بين طرفى التشبيه .

ثم تأتى الصورة الثانية (افتراش السبع) وقد تكلفت رواية مسلم ببيان التشبيه (وينهى أن يفترش الرجل ذراعيه افتراش السبع) [١] والافتراش افتعال من الفرش ، (وهو أن يبسط ذراعية فى السجود ولا يرفعهما عن الأرض ، كما يبسط السبع والكلب والذئب ذراعيه) [٢] ففيه تشبيه وضع اليدين فى السجود وافتراشهما على الأرض بافتراش السبع ، والوجه الهيئة الحاصلة من وضع الساعدين على الأرض فى كل ، وهاتان الصورتان ليس الغرض منهما تقبيح الغراب أو السبع ، وإنما الغرض توضيح الصورة المنهى عنها فى صورة محسة معلومة لدى المخاطبين .

أما الصورة الثالثة (وأن يوطن الرجل المكان فى المسجد كما يوطن البعير)[٣] ، فالمعنى: أن يألف مكانا معلوماً فى المسجد لا يصلى إلا فيه ، كالبعير لا يأوى من عطنه إلا إلى مبرك دمث قد أوطنه واتخذه مناخاً لا يبرك إلا فيه ، ولا يأوى إلا إليه [٤] ففيها تشبيه صورة الرجل وهو يوطن المكان فى المسجد بصورة البعير يوطن المكان فلا يبرك إلا فيه ، قال ابن رجب: (وقد حمل أصحابنا حديث

---

(١) صحيح مسلم١/٢٠٥ ، كتاب: الصلاة ، باب: ما يجمع صفة الصلاة وما يفتتح به .. ، ط دار الكتب العلمية – بيروت .

(٢) شرح سنن النسائى بحاشية السندى ٢/٢٨٨ .

(٣) قوله " يوطن " بكسر الطاء المشددة ، ويجوز تخفيفها ، وفى رواية " كإيطان " وإن صحت فهى من المخفف لا غير لأن المصدر على إفعال ، ولا يكون إلا من أفعل المخفف ، يقال: أوطنت الأرض ووطنتها واستوطنتها أى اتخذتها وطنا ومحلا .

(٤) وقيل: معناه: أن يبرك على ركبتيه قبل يديه إذا أراد السجود برك البعير على المكان الذى أوطنه ، وأن لا يهوى من سجوده فيثنى ركبتيه حتى يضعها بالأرض على سكون ومهل ، وهذا الوجه لا يصح ؛ لأنه لا يمكن أن يكون مشبهاً به ، وأيضا لو كان أريد هذا المعنى لما اختص النهى بالمكان فى المسجد ، فلما ذكر دل على أن المراد هو الأول ، وقال السندى معقبا على هذا المعنى: (وهذا لا يوافق لفظ الحديث ، والله تعالى أعلم) [ينظر: شرح سنن النسائى بحاشية السندى ٢/٢٨٨ ، نيل الأوطار للشوكانى ٥/١٩٧ ، فيض القدير ٦/٤٤٠ .

النهى على الصلاة المفروضة) [1] قال ابن حجر: (وحكمته أن يؤدى إلى الشهرة والرياء والسمعة والتقيد بالعادات والحظوظ والشهوات ، وكل هذه آفات فتعين البعد عما أدى إليها ما أمكن) [2] .

ونلحظ أن الصورة الأخيرة أكثر بغضا لدى رسول الله ﷺ ، حيث إن الخطأ فيها يتعلق بالآخرين ، أما الصورتان الأولى والثانية فالخطأ فيها واقع على المصلى نفسه ، ولهذا احتاج الأمر إلى بيان الصورة الثالثة بالتشبيه المذكور بركنيه وأداته ، وكذا التعبير بالمضارع بدلاً من المصدر لإبراز الصورة واستحضارها فى الذهن ، وتخصيص الرجل بالذكر له خصوصية فى هذا التشبيه لأن فى التعبير به ما يدل على مكانته ، ولذا لا يجرؤ أحد أن يجلس فى موضعه ، ففى النهى إشارة إلى ضرورة أن تذوب هذه الفوارق بصفة عامة وفى المسجد خاصة ، والتخصيص بالمسجد لأنه قد يكون محلاً للعجب والسمعة والكبرياء ، أما فى البيت فلا يكون شيئا من ذلك ، ويستفاد أيضا من التعبير بـ أن والفعل أن الإيطان ينهى عنه بالتكرار ، لا بمجرد الفعلة الواحدة أو الفعلتين .

وعلى كل فإن هذه الصور البيانية أبرزت بوضوح هذه الأمور المنهى عنها ، وتصويرها بالصور المألوفة عند العرب ، فهى صور مقتبسة من البيئة العربية التى كان يعيش فيها ﷺ وأصحابه ، ولذا فقد أدت هذه الصور الغرض المقصود منها .

---

(1) ويؤيده ما روى عن سلمة بن الأكوع أنه كان يتحرى الصلاة عند الأسطوانة التى عند المصحف ، وقال: رأيت رسول الله ﷺ يتحرى الصلاة عندها [نيل الأوطار ١٩٧/٥ حديث ١١٤٨] . وكان للإمام أحمد مكان يقوم فيه فى الصلاة المكتوبة خلف الإمام ، فتأخر يوماً فنحاه الناس وتركوه ، فجاء بعد ذلك فقام فى طرف الصف ولم يقم فيه ، وقال: قد جاء أنه يكره أن يوطن الرجل مكانه [فتح البارى لابن رجب ٣٢١/٣] .

(2) عون المعبود ٣٥٧/٢ .

٢- فى ذكر حرمة الولاة وبيان مهمتهم الشاقة

وعندما أراد ﷺ أن يبين حرمة ولى الأمر ، كشف بطريق التمثيل عما يبتلى به الولاة من مقاساة المشاق فى جمع المال وحفظ الرعية ، حيث نظر فى أحوال الإبل مع رعاتها ، وأظهر من خلالها المهمة الصعبة ، لولى الأمر ، كى تقنع النفوس ، وتوقن بأهلية الوالى وأحقيته بالحرمة فـ (عن عوف بن مالك قال: قتل رجل من حمير رجلاً من العدو فأراد سلبه ، فمنعه خالد بن الوليد ، وكان واليا عليهم ، فأتى رسول الله ﷺ عوف بن مالك فأخبره ، فقال لخالد: ما منعك أن تعطيه سلبه ؟ قال: استكثرته يا رسول الله ، قال: ادفعه إليه ، فمر خالد بعوف فجرّ بردائه ثم قال: هل أنجزت لك ما ذكرت لك من رسول الله ﷺ فسمعه رسول الله ﷺ فاستغضب فقال: لا تعطه يا خالد ، لا تعطه يا خالد ، هل أنتم تاركون لى أمرائى ، إنما مثلكم ومثلهم كمثل رجل استرعى إبلاً أو غنماً فرعاها ، ثم تحين سقيها فأوردها حوضا فشرعت فيه فشربت صفوه وتركت كدره ، فصفوه لكم وكدره عليهم) [١] .

هذه القصة وقعت فى غزوة مؤتة سنة ٨هـ ، وفيها أن رجلا من حمير قتل رجلاً من العدو ولم تنص الروايات على بيان القاتل وكذا المقتول لعدم تعلق الغرض بذكرهما ، واستحق القاتل سلب المقتول ، فمنعه خالد بن الوليد وكان واليا آنذاك [٢] فتوجه عوف إلى رسول الله ﷺ وأخبره بالحدث ، وعلى الفور أحضر ﷺ خالداً وسأله

---

(١) صحيح مسلم ٢/٧٧ ، كتاب الجهاد ، باب: استحقاق القاتل سلب القتيل .

(٢) وعن سبب المنع قال النووى: (ويجاب عنه بوجهين أحدهما: لعله أعطاه بعد ذلك للقاتل ، وإنما أخره تعزيراً له ، ولعوف ابن مالك لكونهما أطلقا ألسنتهما فى خالد ﷺ ، وانتهكا حرمة الوالى ومن ولاه ، الوجه الثانى: لعله استطاب قلب صاحبه فتركه صاحبه باختياره وجعله للمسلمين ، وكان المقصود بذلك استطابة قلب خالد للمصلحة فى إكرام الأمراء [صحيح مسلم بشرح النووى ٦/٢٠٢] .

: (ما منعك أن تعطيه سلبه ؟) ولما كان الاستفهام حقيقياً جاء الجواب (استكثرته) ، وتأتى عدالة رسول الله (ادفعه إليه) ثم رأى رسول الله عوفاً وهو يجر خالداً بردائه ويتجرأ عليه ويقول: (هل أنجزت لك ما ذكرت من رسول الله) فغضب ﷺ وبلغ من شدة غضبه أن قال لخالد (لا تعطه) حيث عاد فنقض الأمر الأول ، فأمر خالداً بعدم إعطاء السلب للقاتل ، وجاء التكرار للتأكيد على نقض الأمر الأول ، ولبيان شدة غضبه ﷺ ، ثم أردفه بهذا الاستفهام الذى خرج عن معناه الحقيقى إلى معنى الأمر (هل أنتم تاركون لى أمرائى) [1] وقد دخل الاستفهام على جملة اسمية دالة على الثبات والدوام ، وفيها اسم الفاعل (تاركون) الدال على الثبوت أيضا ، وفى هذا المعنى دلالة على تمام العناية ببقائه على أصله ، وخرجت (هل) عن اختصاصها بالأفعال ودخلت على الجملة الاسمية لتفيد شدة رغبته ﷺ فى ترك مثل فعل عوف ، فعلى المخاطبين وغيرهم أن يتركوا أمر الولاة أبداً على الدوام ، وتلمح من الاستفهام معنى العتاب والتوبيخ ، ثم أخذ ﷺ فى بيان مهمة الولاة الشاقة ، والملقاة على عاتقهم من خلال هذه الصورة البيانية (إنما مثلكم ومثلهم كمثل رجل استرعى إبلاً أو غنما ....) وإذا تأملنا فى أحوال المشبه به وجدنا عدة معان أراد ﷺأن يثبتها للمشبه ، فقوله (إنما مثلكم ومثلهم) أى إنما مثل الولاة مع الرعية ، وقد اختص لفظ المثل بإطلاقه على الحال الغريبة الشأن ، لأنها بحيث تمثل للناس وتوضح وتشبه سواء شبهت أم لا ... ولما شاع إطلاق لفظ المثل – بالتحريك – على الحال العجيبة الشأن جعل البلغاء إذا أرادوا تشبيه حالة مركبة بحالة مركبة ... أتوا فى جانب المشبه والمشبه به معا ، أو فى جانب أحدهما بلفظ المثل ، وأدخلوا الكاف

(1) أى الأمراء الذين أمرتهم عليكم ، ومنهم خالد بن الوليد تتركونهم بمخالفتهم وعدم متابعتهم وليس صنيعكم هذا لائقا بشأن الأمراء [عون المعبود ١٦١/٦] .

ونحوها من حروف التشبيه على المشبه به منهما ، ولا يطلقون ذلك على التشبيه البسيط [١] .

ثم أخذ ﷺ فى توضيح المشبه به ، فقال (كمثل رجل استرعى إبلاً أو غنما..) قوله (استرعى) من الرعى بمعنى الرعاية وهى الملاحظة والعناية والمتابعة ، وراعى الإبل: حافظها وقائم عليها ، والرعى من الحرف الرئيسية التى تمثل البيئة العربية الخالصة بطبيعتها الصحراوية ، فالعرب كانوا ينتقلون من مكان لآخر طلبا للماء والمرعى الحسن ، وهذه الكلمة وما فيها من حروف الطلب تدل على الكد والاجتهاد ، وتوحى بقوة الدافع الناتج من الشعور والإحساس بالمسئولية تجاه ما يرعاه إبلاً أو غنما ، فالحديث ليس التشبيه فيه خاصا بالإبل ، وإنما يجمع معها الغنم ، لأن غرض التشبيه ليس داخلا فيه خصوصية فى الإبل ، بل الغرض يرجع إلى هذه الأمور التى تحدث معها ، وهى مشتركة فى جميع الحيوانات المألوفة التى يقوم الإنسان على رعايتها والقيام بأمرها ، وإنما خص الإبل والغنم لأهميتهما ، ولأن رعايتهما تطلب مزيداً من الجهد يتناسب مع غرض الحديث .

وقوله (فرعاها) أى أحسن القيام بأمرها ، والعطف بالفاء يشير إلى المتابعة المتتابعة دونما إبطاء أو إمهال فيما يتطلبه أمرها ، وقوله (ثم تحين سقيها) فيه دلالة على طول الانتظار والترقب فى التحين حتى يوردها حوضاً صافياً ، وقوله (فأوردها حوضا ... وتركت كدره) يفيد أن الورود والسقى جاء بعد التحين والترقب ، والعطف بالفاء فى (فأوردها ... فشرعت ... فشربت) يوحى بتوفر أسباب ذلك مما سهل أمر المتابعة بين هذه الأفعال .

هذه المعانى جميعها أراد ﷺ أن يبرز من خلالها عظم أمر الولاية وشدة

---

(١) فلا يقولون: فلان مثل الأسد، وقلما شبهوا حالا مركبة بحال مركبة مقتصرين على الكاف [تفسير التحرير والتنوير ٣٧٢/١ – الدار التونسية للنشر] .

تكليفها ، لما تتطلبه من ضرورة متابعة شئون الرعية ، وأن الوالى يحرم نفسه من الراحة التى يوفرها لرعيته ، حيث يختار لهم أحسن الأمور ، ويؤثرهم على نفسه ، ويقدم مصلحتهم على مصلحته ، وهكذا كان ولاة النبى ﷺ [1] ، وتكمن البلاغة النبوية فى إبراز هذه الصلات الوثيقة بين عناصر المشبه وعناصر المشبه به ، ومن خلال ما ذكر فى جانب المشبه به تبين أن الوالى يقوم على مصالح رعيته ، يكد فى ذلك ، ويمنع نفسه رغائبها ، ويأخذ حقه بعد أخذهم حقوقهم ، ويدع لهم الأفضل ، ويؤثرهم على نفسه ، فقوله (فشربت صفوه وتركت كدره) يعكس مزيد عناية الوالى بأمر الرعية ، وجلب الخير لهم ، ودفع الضر عنهم ، وصفو الماء الذى شربته الماشية هو محاسن الأشياء التى يقدمها الوالى لرعيته وإيثارهم عليه [2] .

فالحديث (من ضرب الأمثال للتقريب إلى الأفهام ، فالمشبه: إنما مثلكم ومثلهم أى مثل حال الرعية مع أمرائها ، والمشبه به : كمثل رجل استرعى إبلاً ... إلخ ، فهو تشبيه حالة بحالة ، ... ووجه الشبه : صورة منتزعة من هذه الحال تفيد أن الرعية يأخذون صفو الأمور ، حيث تصلهم أعطياتهم وحقوقهم بغير نكد أو معاناة ، ويبتلى الأمراء والولاة بمقاساة الأمور وحفظ الحقوق لأصحابها ، ثم متى وقع عتاب فى بعض ذلك توجه على الأمراء دون الناس ، وهذا المثل مقتبس

---

(1) لأنهم كانوا من خيار الناس ، وأحسنهم أمانة ودينا ، لم يسعوا إلى الإمارة ، ولم يطلبوها لعلمهم بعظم أمرها وشدة تكليفها .

(2) لذا قال النووى (معنى الحديث أن الرعية يأخذون صفو الأمور فتصلهم أعطياتهم بغير نكد وتبتلى الولاة بمقاساة الأمور ، وجمع الأموال على وجهها ، وصرفها فى وجوهها ، وحفظ الرعية والشفقة عليهم ، والذب عنهم ، وإنصاف بعضهم من بعض ، ثم متى وقع علقة أو عتب فى بعض ذلك توجه على الأمراء دون الناس) [صحيح مسلم بشرح النووى ٦/٣١٠] .

من البيئة العربية التى يعيش فيها الرسول ﷺ والصحابة وكان الرعى من أهم الحرف وأشرفها ، ومن هنا فالغرض من التشبيه التمثيلى الوارد فى الحديث بيان حال المشبه)[1] وقد ختم الحديث بهذه الجملة الاسمية (فصفوه لكم وكدره عليهم) الدالة على ثبات معناها ، وقد جاء الوصل بين الجملتين للتوسط بين الكمالين مع عدم المانع ، وقد اشتملت الجملة على مقابلة ثنائية بديعة ، وهى (من أقدر الأساليب على إظهار نصوع المعانى ، فالأشياء تتميز وتتباين بأضدادها ... وهذه الخصوصية تعطى الأسلوب قدرة على الحفاظ على الإيقاظ وصيرورة الحس كأن يكون مستفزاً أو مثاراً حين يحس بما وراء هذه المتناقضات من صراعات وتجاذبات وهو يثب على قممها المتغايرة المتناقضة) [2] بهذه الصورة التشبيهية المنتزعة من البيئة استقر المعنى وثبت فى الوجدان ، من خلال هذا التصوير الفنى العجيب ، فمن ذا الذى لا يتخيل صورة المشبه به ، وهى صورة واقعية ، ملموسة ، إن هذه الصورة على الرغم من بساطة تناولها تستمر ماثلة الأطراف والجوانب عبر الخيال النفسى لكل مشاهد ، وهذا من خصائص الإفصاح عن المعانى عند الأدباء بوجه عام ، لكنها فى الأدب النبوى تميزت بنهج خاص هو القدرة على الملائمة بين المعنى واللفظ ليخدم كل منهما الآخر .

(1) أثر التشبيه فى تصوير المعنى ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(2) قراءة فى الأدب القديم ، د/ محمد أبو موسى ، ص ٢٢٨ ، ط أولى مكتبة وهبة .

٣- فى سياق النهى عن التشبه بالحيوانات

أ- عندما أراد ﷺ أن ينهى أمته عن الشرب مرة واحدة ، صور هذا السلوك بفعل الحيوان حيث نظر فى الإبل ، وانتزع من أحوالها حالة الشرب دفعة واحدة ، وفى هذا التصوير تأكيد للنهى عن الفعل والتنفير منه ، فـ (عن ابن عباس قال: قال رسول اللهﷺ : لا تشربوا واحداً كشرب البعير ، ولكن اشربوا مثنى وثلاث ، وسموا إذا شربتم ، واحمدوا إذا أنتم رفعتم) [١] .

فالحديث جاء فى نظم بلاغى جميل يتناسب مع عظم التوجيه النبوى ، وقد بدأ بالأسلوب الإنشائى (لا تشربوا واحدا) حيث دخلت لا الناهية على مضارع فاعله ضمير خطاب للحاضرين ، وهذا النمط هو الأكثر وروداً فى الحديث الشريف ، من حيث إن النهى فيه يكون موجها إلى جميع الأمة ، وإن كان المخاطب فى ساحة الحضور وقت الخطاب واحداً أو أكثر .

فقوله (لا تشربوا) وارد على سبيل الخطاب لكل المؤمنين ، أفراداً كانوا أو جماعات ، ذكوراً كانوا أو إناثاً ، فما من نفس مؤمنة على مدار الزمان والمكان تتلقى هذا النهى إلا ويلوح لها بأنها مخاطبة به .

ومعنى (لا تشربوا واحدا) أى شربا واحدا لا ينقطع دون فترة ولا استراحة ، فـ واحد صفة لمصدر محذوف جاء لبيان أن المنهى عنه الشرب واحداً لا مطلق شرب ، وإنما نهى ﷺ عن الشرب مرة واحدة لأنه شرب الشيطان ثم شبه ﷺ الشرب واحداً بشرب البعير [٢] (كشرب البعير) فأتبع النهى بصورة مؤثرة تكشف للمخاطبين عن السبب ، وهو عدم التشبيه بالحيوان ، فعلة النهى جاءت معتمدة

---

(١) الجامع الصحيح للترمذى ٢٦٧/١٤ ، حديث رقم ١٨٨٥ ، كتاب الأشربة ، باب: ما جاء فى التنفس فى الإناء .

(٢) وفى ذلك إشارة إلى قوله تعالى ﴿ فشاربون شرب الهيم ﴾ [الواقعة ٥٥] .

على التشبيه واستخدم من أدوات التشبيه الكاف لأنه لا يريد تشبيه حقيقة الشرب بين الطرفين ، وإنما يريد النهى عن الشرب حال كونه على صفة معينة وهى مرة واحدة ، فإن التشبيه بها لا يوحى بتمام المبالغة ، والاشتراك التام فى الصفة بين المشبه والمشبه به ، ومعنى (كشرب البعير) أى كما يشرب البعير دفعة واحدة ؛ لأنه يتنفس فى الإناء ، فالرسول ﷺ بدأ بيانه بنهى أمته عن أن تشرب واحداً لخطورته ، ثم جاء بهذه الصورة البيانية المنتزعة من البيئة العربية ، والتى تجعل الإنسان العاقل ينفر من هذا الفعل ، لأن الإنسان مأمور بالنهى عن التشبه بالحيوانات ، وهذا النهى المتصدر الحديث يتضمن الأمر بضده ويستلزمه ، وهو الشرب غير واحد أى مثنى أو ثلاث ، لكننا نلحظ أنه ﷺ أتبع النهى بالأمر بضده ، وذلك لأمرين الأول: أن التصريح بالأمر بعد النهى فيه تأكيد لما تضمنه النهى السابق تأكيداً معنويا ، من باب ذكر الشئ مرتين أحدهما لفظاً والآخر معنى على سبيل التأكيد وزيادة الإيضاح ، ترغيباً فى تنفيذ الأمر باعتبار أن النهى عن ضده علة له وبيان .

الآخر: الدلالة على أن المنهى عنه مطلوب تركه فى جميع الأحوال ، إذ لو اقتصر على النهى وحده لجاز للمتلقى أن يتركه حينا من الزمن ، ويفعل ضده حينا آخر ، فلما جئ بالأمر عقب النهى دل ذلك على أن كلاً من النهى والأمر قرينان متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر ومن ثم تكون المبالغة .

وإنما أمر ﷺ بأن يكون الشرب مثنى أو ثلاث ؛ لأنه كما قال ﷺ (أروى وأبرأ وأمرأ) [1] وفى رواية لأبى داود (أهنأ) [2] والأفضل أن يكون على ثلاث مرات ؛ لأن ذلك أقمع للعطش ، وأقوى على الهضم ، وأقل أثراً فى ضعف الأعضاء وبرد

(1) صحيح مسلم ٢٠٩/٢ ، كتاب: الأشربة ، باب: كراهية التنفس فى نفس الإناء ...

(2) سنن أبى داود ٣٣١/٢ ، كتاب: الأشربة ، باب: فى الساقى متى يشرب .

المعدة [١] ففيه ناحية طبية ، وقد روى أبو هريرة أن النبى ﷺ كان يشرب فى ثلاثة أنفاس [٢] .

ب- وعندما أراد ﷺ أن ينهى أمته عن وضع الركبتين قبل اليدين فى السجود فى الصلاة ؛ لأن ذلك قد يشعر بالتهاون وقلة الاعتناء بها [٣] نظر فى الإبل وانتزع من هيأتها هيئة تصور هذا الفعل بصورة ملموسة محسة ، فشبه هيئة المصلى الذى يضع ركبتيه على الأرض فى السجود قبل يديه بهيئة البعير حال بروكه ، تنفيراً منها وحرصاً على تجنبها فـ (عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: إذا سجد أحدكم فلا يبرك كما يبرك البعير ، وليضع يديه قبل ركبتيه)[٤] .

ففى هذا الحديث نجد التحديد الدلالى للفكرة يأخذ نمطاً خاصاً من أنماط المعالجة النفسية من خلال الارتكاز على أسلوب من الانتقال الفكرى الذى يتم فى إطاره مقارنة القضية المنشود معالجتها بصورة تعبر عن هيئة يمكن من خلال تأملها تمكن الأثر النفسى المترتب على تلك القضية فى النفس والتصوير تنفيرا منها [٥] .

وهذا التشبيه الذى صور فيه ﷺ هيئة من يقدم ركبتيه على يديه عند السجود بهيئة البعير حال بروكه لهو وصف دقيق لتلك الحال ، وما يرتبط بها من

---

(١) فتح البارى ١١٢/١٦ .

(٢) المعجم الأوسط للطبرانى ٣٥١/٢ ، باب: من اسمه أحمد .

(٣) قال الحافظ فى حديث (اعتدلوا فى السجود ولا يفترش أحدكم ذراعيه افتراش الكلب) : " والهيئة المنهى عنها ... مشعرة بالتهاون وقلة الاعتناء بالصلاة " عون المعبود ٣٨٨/٢

(٤) سنن أبى داود ٢١٤/١ ، كتاب: الصلاة ، باب: كيف يضع ركبتيه قبل يديه .

(٥) ينظر: الخصائص البلاغية واللغوية فى أسلوب الحديث النبوى الشريف ٢٥٤ .

الهيئات ، وتعبير عما وراء ذلك من دلالات ترتبط بعدم اكتمال المعرفة بأمور الصلاة ، وتعبير كذلك عن دقة توجيه النبى ﷺ وقدرته البلاغية على إثارة الانتباه والمعالجة الهادفة والتوجيه السديد [1] .

ونلحظ استهلال الحديث بأداة الشرط (إذا) واتباعها الفعل الماضى للدلالة على تحقق الوقوع ، ثم جاء لفظ (أحد) مضافا إلى ضمير المخاطبين لإفادة العموم ، ومجئ الفاء فى جواب الشرط المتحقق (إذا) والفعل الماضى يدل على التيقظ التام ، والاهتمام المتعاقب بعضه إثر بعض عند قصد السجود ، وتقديم الفعل المنهى عنه قبل التصوير بالتشبيه (فلا يبرك) مما يعضد ذلك ، ومجئ الجواب مصدراً بـ لا الناهية متبوعة بالفعل المضارع لاستحضار الصورة ، والنهى ههنا عام لكل من يتأتى منه هذا الفعل ، يدلنا على ذلك لفظ (أحدكم) الذى أسند إليه الفعل ، فكأن هاتين اللفظتين تشيران إلى أنه ﷺ وقت الخطاب كان يرى عموم المخاطبين على مدار الزمان والمكان، وجاء قوله (كما يبرك البعير) لبيان متعلق الفعل ، وأن النهى منصب عليه ، قلو قيل (فلا يبرك) وسكت لم يصح ، وفى التعبير بالمضارع هنا ضرورة نحوية لبيان النهى ، ولا معدل عنه ، أما التعبير به فى (كما يبرك البعير) مع صحة وقوع المصدر موقعه لتصوير الحالة المنهى عنها ، وعبر عن هذه الهيئة للمصلى بـ (يبرك) مع أن ذلك من خصائص البعير ، لما فيه من الانتقاص من شأن المصلى ، الذى يفعل هذا الفعل حيث يتشبه بالحيوانات ، وحين يلفتنا البيان الكريم إلى مشاهدة هذه الصورة ، والنهى عنها لا يعنى أنها عيب فى

---

(1) وقد اتضح مضمون النهى هنا عن طريق هذا الانتقال الفكرى من المنهى عنه إلى تأمل هيئة ما اقترن به من الصور الحسية التى يمكن من خلال تأملها حصول مشاعر النفور والاشمئزاز ، وهنا تتمكن دلالة التعبير ، وتأخذ طريقها إلى المعالجة ويثبت الأثر النفسى ملازماً لها مما يترتب على رسوخ ذلك فى السلوك العملى المنشود .

البعير أو انتقاص منه ، إنما الهدف إدراكها ، ومشاهدتها بصورة محسة ، إذ ليس الخبر كالمعاينة ، فمشهد بروك البعير مشهد منتزع من البيئة العربية ، فالعربى يراه ويشاهده من خلال معايشته له ، وارتباطه به ، وقوله (فلا يبرك كما يبرك البعير) فيه قطع للوشائج التى تزرع الخلاف وتشتت الذهن عن المطلوب ، وسد للذرائع كما أن فيه من التأكيد ما لا يخفى ، والمعنى: لا يضع ركبتيه قبل يديه كما يبرك البعير ، شبه ذلك ببروك البعير مع أنه يضع يديه قبل رجليه ؛ لأن ركبة الإنسان فى الرِّجل ، وركبة الدواب فى اليد ، وإذا وضع ركبته أولا فقد شابه الإبل فى البروك [1] .

وفى قوله (كما يبرك) دخلت كاف التشبيه على ما المصدرية الداخلة على نفس الفعل المنهى عنه لتومئ بالتماثل التام بين الفعلين فتتحقق الدلالة المرادة ، وهذا النمط الأسلوبى له أثره فى جذب الانتباه إلى تلقى ما سيرد عليه من خلال متابعته لجواب (إذا) الذى سيتضمن بالضرورة شيئا له أهميته ، وحين يضاف إلى ذلك كله ورود الجواب فى صيغة المضارع المنهى عنه المشعر بالنفرة ، فإن درجة الشعور بالموقف تكون قد قويت ، ولا يقتصر التوجيه النبوى على النهى ، وإنما يعقبه الأمر لبيان السلوك الأمثل الذى ينبغى للمسلم فعله عند السجود (وليضع يديه قبل ركبتيه) وفى التعبير بالوضع ما يلائم طبيعة الإنسان ، ويقوى جانب التنفير عن المنهى عنه ، لأنه يضع ولا يبرك ،والحديث (يدل على سنية وضع اليدين قبل الركبتين وإليه ذهب الأوزاعى ومالك وابن حزم

(1) عون المعبود ٣٣٩/٢ ، تحفة الآحوذى ٣٠٢/١ ، والنهى فى الحديث موافق لنهيه ﷺ عن التشبيه بالحيوانات فى الصلاة ، فقد نهى ﷺ عن التشبيه بالغراب فى النقر ، والتفات كالتفات الثعلب ، وافتراش كافتراش السبع ، وإقعاء كإقعاء الكلب ، ورفع الأيدى فى السلام كأذناب البقر .

وأحمد) [١] وفى رواية لأبى هريرة أيضا: (يعمد أحدكم فى صلاته فيبرك كما يبرك الجمل)[٢] بتقدير همزة الاستفهام الإنكارى ، أى أيعمد أحدكم فيضع ركبتيه قبل يديه فى الصلاة كما يضع البعير ركبتيه قبل يديه ، أى لا يفعل هكذا ، بل يضع يديه قبل ركبتيه) [٣] .

(١) عون المعبود ٣٣٩/٢ ، تحفة الأحوذى ٣٠٢/١ .

(٢) سنن أبى داود ٢١٤/١ ، كناب: الصلاة ، باب كيف يضع ركبتيه قبل يديه ، سنن النسائى ٢٤٩/٤ حديث رقم ١٠٧٨ ، باب ما يصل من الأرض ، الجامع الصحيح للترمذى ، كتاب الصلاة باب منه ٥٨/٢ حديث رقم ٢٦٩ .

(٣) عون المعبود ، تحفة الأحوذى

٤- فى سياق بيان ندرة الأخيار من الناس

وعندما أراد ﷺ أن يبين أنه سيأتى زمان يكون الناس فيه كثيرين ، وأن المرضى عنهم قليل ، حيث لا تجد فى مائة من الناس من يصلح للصحبة وحمل المودة ، نظر فى الإبل وانتزع من أحوالها هذه الصفة ، فشبه ندرة الأخيار من الناس ، بندرة الراحلة فى الإبل فـ (عن عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – قال:سمعت رسول اللهﷺ يقول:إنما الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة)[١].

هذا الحديث إنما يراد به القرون المذمومة فى آخر الزمان ، ولذلك ذكره البخارى فى رفع الأمانة ، ولم يرد به ﷺ زمن أصحابه وتابعيهم ، لأنه قد شهد لهم بالفضل [٢] وهو يعد من جوامع كلمه ﷺ فقد جمع المعانى الكبار فى لفظ موجز [٣] والمعنى: أن الناس كثير ، والمرضى منهم قليل ، كما أن المائة من الإبل لا تكاد تصاب فيها الراحلة الواحدة [٤] ، وقد استهل الحديث بـ إنما للتأكيد على هذا المعنى الذى لا يجهله أحد ، فتفاوت الفضل بين الناس أمر مسلم لا تدفعه النفوس ، ولا

---

(١) صحيح البخارى ٣٢٨/٣ ، حديث رقم ٦٠١٧ ، كتاب الرقاق ، باب: رفع الأمانة ،

(٢) فى قوله ﷺ (خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ...) .

(٣) ومن هنا اختلف الشارحون فى المعنى المراد ، فقال ابن قتيبة: معنى الحديث أن الناس متساوون ليس لأحد منهم فضل فى النسب ، بل هم أشباه كالإبل المائة ، وقال الأزهرى: معنى الحديث أن الزاهد فى الدنيا الكامل فى الزهد فيها والرغبة فى الآخرة قليل جداً كقلة الراحلة فى الإبل ، ويقول النووى: كلام الأزهرى أجود من كلام ابن قتيبة ، وأجود منهما قول آخرين: أن معناه المرضى الأحوال من الناس الكامل الأوصاف الحسن المنظر القوى على الأحمال والأسفار [صحيح مسلم بشرح النووى ٣٣٠/٨]

(٤) والراحلة من الإبل البعير القوى على الأسفار والأحمال ، والذكر والأنثى فيه سواء ، والهاء فيها للمبالغة ، وهى التى يختارها الرجل لمركبه ورحله على النجابة ، وتمام الخلق وحسن المنظر ، فإذا كانت فى جماعة الإبل عرفت [تحفة الأحوذى ١٩١/٧] .

شك فيه ، وقوله: (إنما الناس) أى فى اختلاف حالاتهم وتغير صفاتهم ، حيث ترى الكثيرين منهم يرتدون مسوح الراشدين ، ويتحدثون بلسان الصديقين ، ولكن الخبر يمزق كل هذه الأقنعة ، ويكشف قلوب الشياطين وراء وجوه الملائكة ، وقوله (كالإبل المائة) وفى رواية (كإبل مائة) فعلى الرواية الأولى اللام للجنس ، وعلى الرواية الثانية يكون قوله (مائة) تفسيراً لقوله (إبل) لأن قوله (كإبل) أى كمائة بعير ، ولما كان مجرد لفظ (إبل) ليس مشهور الاستعمال فى المائة ذكر المائة توضيحا ورفعا للالتباس [1] والسر فى استعمال الكاف هنا أنه لا يريد تشبيه حقيقة الناس بحقيقة الإبل ، وإنما يريد الإشارة إلى أنه يأتى زمان يكون الناس فيه كثيرين ، ولكن المرضى عنهم والذى يلتزم شرع الله عز وجل قليل ، شأن الإبل الكثيرة التى تبلغ المائة ، ولا تكاد توجد منها واحدة تصلح للركوب والانتفاع بها ، وقوله (لا تكاد تجد فيها راحلة) نلحظ أن اسم تكاد ضمير مستتر ، وخبرها فعل مضارع ، وقد ورد هذا التركيب بقلة فى الحديث الشريف .

وبلاغة التشبيه تأتى من دقة اختياره ﷺ للمشبه به ، وإبراز العلاقة بينه وبين المشبه ، فالراحلة: النجيبة من الإبل ، والمختارة منها ، وإن كانت فيهم عرفت ، وهذه لها قدرة على الأحمال الشاقة والأسفار الطويلة ، ولا تكون كذلك إلا بعد ترويض وطول تجربة وممارسة وهى تمثل الصفوة من الإبل ، وكذلك الكريم من الناس قليل وجوده ، وهى مرتبة لا يبلغها صاحبها إلا بعد اختبار وابتلاء وشدة أبانت عن معدنه ، وكشفت منه هذا الجوهر الإنسانى النفيس ، فالمتصف بهذه الصفات لا يصادفنا وجوده إلا مرة أو مرات معدودة بين الناس ، ولا يعرف الراحلة من الإبل إلا من طالت خبرته بها ، كذلك هذا النوع من الناس لا يعرف إلا بعد طول

(1) قال الخطابى: العرب تقول للمائة من الإبل إبل ، يقولون: لفلان إبل أى مائة بعير ، ولفلان إبلان أى مائتان [تحفة الأحوذى ١٩١/٧] .

تجربة تكشف عن معدنه ، وحين يرشد ﷺ إلى هذا النوع كأنه يغرى بهذه المراتب ، ويأخذ بيد الأمة نحو الارتقاء إلى هذه المنازل أو ما يقاربها [١] .

والشبه الذى أوضحه هذا التشبيه شبه خفى ، ولولا التشبيه بكامل أركانه ووضوح أداته لما استطاع إبرازه ، لأنه ليس المراد الندرة فحسب ، وإنما تصوير كثرة الزيف المحكم فى الطرفين ، ثم دقة الرؤية ، وشفافية الإدراك الواصل إلى حقيقة الطبع ، وتمييز الأصيل الخالص من الزائف الكدر [٢] .

وهذا التشبيه لا يمكن أن ينتقل إلى دائرة الاستعارة ، بل إنه لا يمكن أن ينتقل إلى دائرة التشبيه المؤكد ، والذى تحذف فيه الأداة ، وإنما يظل فى هذه المرتبة ، وتظل هذه الكاف علماً أو عروة تربط جماعة الناس بجماعة الإبل فى أنك لا تجد فى المائة منها ناقة نجيبة نجابة صادقة خالصة ، والإمام عبد القاهر ينفى إمكان تحويل التشبيه فى الحديث إلى الاستعارة [٣] ويلمح إلى أن التعبير بالمشبه به وحذف المشبه لا يوضح العلاقة بين طرفى التشبيه ، لعدم شيوع العبارة عن هذه الحالة بالمشبه به ، فلابد من ذكر الطرفين والأداة الرابطة بينهما ليتعاون كل ذلك على كشف هذه العلاقة .

---

(١) ويلاحظ أنه ﷺ قد اختار الإبل ، لأنها تتكاثر فى مرأى العين حسن شياتها ، وأشكالها الملبسة والموهمة بعتقها وكرمها ، وهذا هو الذى تراه فى الناس حين ترى الكثيرين يرتدون مسوح الراشدين .. والخبر يمزق كل هذه الأقنعة .[التشبيه التمثيلى فى الصحيحين ، ص٢٩٨] .

(٢) ينظر: شروح التلخيص ٢٢٦/٤ ، ٢٢٧ ، التصوير البيانى ٣٣٤ .

(٣) فيقول: (قل الآن من أى جهة تصل إلى الاستعارة ههنا ، وبأى ذريعة تتذرع إليها ؟ هل أن تقول: رأيت إبلا مائة لا تجدر فيها راحلة ، فى معنى: رأيت ناسا ، أو: الإبل المائة التى لا تجد فيها راحلة ، تريد الناس ، كما قلت: رأيت أسداً ، على معنى: رجلاً كالأسد ، أو الأسد ، على معنى : الذى هو كالأسد) [أسرار البلاغة ، ص٢٤٥] .

٥- فى بيان منزلته ﷺ يوم القيامة وعقوبة من بدل وغيّر شرع الله

وعندما أراد ﷺ أن يبين عقوبة كل من بدَّل وغيَّر فى شرع الله ، وابتعد عن سنته ﷺ ، وأنه صار بفعله هذا غريبا عن أمته ﷺ ، فاستحق الطرد عن حوضه ﷺ ، نظر فى أحوال الإبل وانتزع منها ما يتفق مع مقصوده ، فنظر إليها من جهة شرودها عن جماعتها ومحاولة الإقحام فى جماعات أخرى فتحاول أن تشرب معهم ، لكنها لا تجد إلا الطرد والدفع لأنها غريبة ، فـ (عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : ترد علىّ أمتى الحوض ، وأنا أذود الناس عنه كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله ...) [١] .

والحديث استهله ﷺ بهذه الجملة الخبرية (ترد علىَ أمتى الحوض) التى تدفع المتلقى إلى المتابعة ، وتثير انتباهه إلى ما بعدها لأهميته حيث تعلقه بأحوال الآخرة ، ونلحظ صنعة شريفة فى النظم متعددة الجوانب ، منها استهلال الجملة بالفعل المضارع لاستحضار الصورة من ناحية ، ولبيان كثرة الواردين عليه ﷺ من ناحية أخرى ، ومنها تقديم الجار والمجرور على الفاعل والمفعول ، وذلك لبيان اختصاصه ﷺ بالحوض ، واستعلائه عليه وتمكنه منه ، ومنها الإضافة فى (أمتى) وهى للتخصيص ولا تخلو من تشريف ، وأل فى الحوض للعهد ، ثم جاءت جملة التشبيه مقترنة بواو الحال التى تدل على أنه مع الورود يكون الطرد لأناس من الواردين ، وقد استهلت جملة التشبيه بالضمير (أنا) وكان من الممكن الاستغناء عنه ، لكنه ﷺ عدل عن ذلك بذكره زيادة فى التأكيد على صدق ما يقول ، إذ إن بلاغة الوصف تحتاج إلى تأكيد ، كما أن ذكر الضمير هنا يلفت إلى شدة غضبه ﷺ على هؤلاء الذين يذودهم عن حوضه لسوء صنيعهم ، ويؤيده ما جاء فى الحديث (

---

(١) صحيح مسلم ١٢٢/١، كتاب الطهارة ، باب: استحباب إطالة الغرة والتحجيل فى الوضوء .

فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك ، فأقول: سحقا سحقا) [١] والتعبير بـ(أذود) يفيد تجدد الفعل لكثرة المزودين ، فضلاً عن أن هذه الكلمة بصيغتها تصور شدة دفعه ﷺ لهؤلاء المزودين ، ومغالبتهم حتى لا يشربوا من حوضه حين يشتد بهم العطش ، لشدة تهافتهم على الحوض ، فلا يزال ﷺ يدفعهم ويمنعهم ويجهد نفسه فى ذلك فيغالبهم فيغلبهم ، والتعبير بالذود من قبيل المجاز ؛ لأن (حقيقة الذود: طرد الأنعام عن الماء ولذلك سموا القطيع من الإبل الذود ، فلا يقال: ذدت الناس إلا مجازاً) [٢] يقول الطبرى: (لا يجوز أن يقال: ذدت الرجل بمعنى حبسته ، إنما يقال ذلك للغنم والإبل) [٣] والمجاز هنا له دخل فى التشبيه ، إذ التعبير بالذود يعطى صورة للذم والإهانة والتقبيح ،والمراد بالناس (هؤلاء الذين غيروا وبدلوا ، ولم تنطو قلوبهم على الإخلاص لهذا الدين وقيمة ومثله ... فهؤلاء يعدون غرباء عن ساحة الإسلام وأهله ، ويوم القيامة يكونون أشد بعداً عن رحمة الله وفضله) [٤] وفى التعبير بالضمير فى (عنه) بدل الاسم الظاهر لتقدم ذكره ، ولم يمنع مانع من فهم المراد عند الإضمار ، والأصل وأنا أذود من بدَّل وغيَّر بعدى عن الحوض فلا يتمكن من الشرب منه ، وأل فى (الناس) للعهد ، للدلالة على أن من بدل وغير ليس من أمته ﷺ ، ويحتمل أن تكون للجنس ، وفيها إشارة إلى كثرة الذين يذودهم ﷺ ، وفى الكلام تشريف وتكريم لأمته ﷺ وهو من لوازم الطرد لهؤلاء الناس [٥] .

---

(١) صحيح مسلم ١٢٢/١ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ٣٧٤/١٠ .

(٣) تفسير الطبرى ٥٥١/١٩ .

(٤) من بلاغة الحديث النبوى ، ص٦٢ .

(٥) إذ طرد هؤلاء يستلزم بالضرورة تهيئة وتقديم كل وسائل الراحة ، لأبناء أمته ﷺ وتمكينهم من

وفى قوله ﷺ (كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله) نلحظ دقة اختيار الكاف كأداة للتشبيه هنا ، لأن المراد جزئية واحدة من المشبه به وهى الذود ، إذ (معناه: كما يذود الساقى الناقة الغريبة عن إبله إذا أرادت الشرب مع إبله) [1] والتكرار بذكر (الرجل) مرتين و (إبل – إبله) وإن كان ثقيلا إلا أن فيه تصويراً بديعا للتجاذب بين الرجل والإبل من حيث شدة الذود ومقاومة الخصم ، والتشبيه من واقع البيئة العربية ؛ كى تكون صورته قريبة للأذهان فالمشبه الغيبى الهيئة الحاصلة من ذوده ﷺ كل من بدل وغير ، ومن ليست له أحقية فى الشرب من حوضه ﷺ فى اليوم الآخر ، والمشبه به الهيئة الحاصلة من حال الراعى حين يورد إبله موارد سقياها ، فيطرد الناقة الغريبة عن الحوض الذى تشرب منه إبله ضنا بماء الإبل المخصص لها ، ولعدم أحقية الغريبة فى الشرب منه [2] ، والغرض من التشبيه تقبيح صورة المشبه وذمه ، وهو يفيد أن من لا يستحق النعمة يجب أن يمنع من الاقتراب منها ، وقد أبرز ﷺ بهذا التشبيه هذه الصورة الغيبية حين صورها فى صورة محسة وواقعية من واقع البيئة العربية ، واختار لها الحيوان المعروف عند العرب فى حالة شائعة معروفة وهى الورود على الحوض ، وقد (صيغت هذه الصورة على أسلوب قصة تعتمد على التشبيه المتصل بحياة السامعين ، وهو التشبيه بالبعير الضال الذى يذاد ويدفع بالشدة والعنف ، وفى ذلك تجسيد

الحوض والشرب منه ، ففيه البشارة لكل من التزم شرع الله ولم يبدل أو يغير .

(1) صحيح مسلم بشرح النووى ٦/٨ .

(2) غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٣٤٩/٣ ، (ووجه التشبيه أن أصحاب الإبل إذا وردوا المياه بإبلهم ازدحمت الإبل عند الورود فيكون فيها الضال والغريب ، فكل أحد من أصحاب الإبل يدفعه عن إبله حتى تشرب إبله ، فيكثر صادوه ودافعوه حتى صار مثلا شائعا ، قال الحجاج لأهل العراق: لأحزمنكم حزم السلمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل [المفهم شرح صحيح مسلم ٥٨٦/٢] .

للخزى والعذاب والهلاك الذى يصيب من بدل ما كان عليه ﷺ) [١] .

وهذه الصورة البيانية قد اختيرت عناصرها بعناية ، فصورة المشبه به الصحراوية قد انتقلت بكل جزئياتها إلى اليوم الآخر ، وصارت شاهدا يقاس عليه الغائب ، وإدراك التلاؤم بين الصورتين إنما هو تعمق فى الفكرة ، ونضوج فى الطبع والسجية [٢] .

وتلحظ أن عناصر الصورة فى الطرفين جاءت على وجه الامتزاج والارتباط ، بحيث كونت هيئة هى المرادة من التشبيه ، ولا يصح مقابلة أجزاء أحد الطرفين بما يقابله فى الطرف الآخر ، بأن يقال: شُبه ﷺ بالساقى ، وشُبه من يطردهم عن حوضه بالإبل الغريبة التى يطردها الساقى ، فهذا الأمر وإن كان جائزاً ، إلا أن البلاغة لا تقف مع الجواز ، وإنما تقف مع الاستحسان والهدف من التشبيه ، وذلك واجب فى العرف البلاغى .

وعندما أراد ﷺ أن يبين منزلته ومكانته بالنسبة لأمته يوم القيامة [٣] صور

---

(١) التصوير الفنى فى الحديث النبوى ، ص١٢٠ .

(٢) ففى الصورة الصحراوية هناك الظمأ الحارق ، والشمس المتقدة ، والصحارى الممتدة ، ثم حوض الماء النقى الصافى الذى يحاط ماؤه ويحفظ ، وشرب إبل ومغالبة أخرى ، وفى صورة يوم القيامة هناك الظمأ الحارق الذى يلهب حلوق الناس فى ذلك اليوم العصيب ، ثم التهافت على الماء حال رؤيته ، ورسول الله ﷺ يقف أمام حوضه العذب فيترك أناسا يشربون ، ويذود ويدفع ويجاهد أناساً آخرين ، أحدثوا فى الإسلام ، وحاربوه بشتى الوسائل ، فهم يوم القيامة مبعدون عن انتسابهم لهذه الأمة كغرائب الإبل .

(٣) بأنه قائم على خدمتهم يسبقهم إلى حوضه الشريف كالمهيئ له ، حتى إذا اشتد العطش بالناس ، وتهافتوا على الحوض حال رؤيتهم له ، فإنه ﷺ يقف أمام حوضه يشرف على سقاية أمته ، حتى تتم لهم السقيا جميعا بخارق غيبى .

هذه الصورة الغيبية المستقبلية بصورة واقعية من واقع البيئة التى يعيشون فيها ، ويدركونها مراراً وتكراراً ، حيث شبه نفسه وما يقوم به من خدمة أمته يوم القيامة بالفرط ، وإذا كان المخاطبون يعرفون معنى الفرط وما يقوم به استقر المعنى فى أذهانهم ، وبذلوا قصارى جهدهم لنيل هذه المكرمة ، فـ (عن عقبة بن عامر أن النبى ﷺ خرج يوما فصلى على أهل أحد صلاته على الميت ، ثم انصرف إلى المنبر فقال: إنى فرط لكم .....) [1] .

فالصورة البيانية التى جاءت فى بيانه ﷺ أوردها الصحابى بعد هذه المقدمة منه ، والتى لها صلة وثيقة بكلامه ﷺ ؛ لأن قوله ﷺ " إنى فرط لكم " فيها إشارة إلى قرب وفاته ﷺ وتقدمه لأصحابه ، ولذا جاء فى رواية عقبة بن عامر: " ثم صعد المنبر كالمودع للأحياء والأموات فقال: إنى بين أيديكم فرط ... " وقوله ﷺ " إنى فرط لكم " هذا النمط الأسلوبى من مجئ " إن " فى صدر الكلام ، ثم مجئ اسمها ضمير تكلم ، ومجئ خبرها مفرداً نكرة هو أكثر أنماط جملة " إن " انتشاراً ، وفى رواية (أنا فرطكم على الحوض ...) [2] ، والروايات فى مجموعها حديث عن فضل الله عليه ﷺ ، ولا يخلو الأسلوب من فخر ومباهاة بهذا الفضل ، وقد صدر الحديث بـ إن التى تفيد التوكيد مبرزة أهمية القضية لارتباطها بيوم القيامة ، يوم الحسرة والندامة ، ثم جاء اسمها ضمير تكلم دالاً على ذاته الشريفة ﷺ ، والروايات " إنى فرط لكم " " إنى بين أيديكم فرط " أنا فرطكم " مع اختلافها فى الصياغة إلا أنها تشترك فى المعنى العام المراد ، وهو اختصاصه ﷺ بهذا الأمر ، واختصاصهم هم بهذا الفضل ، والتشبيه فى " إنى فرط لكم " مما يلتبس بالاستعارة

---

(1) صحيح البخارى ٣٢١/١ حديث رقم ١٢٥٨ ، كتاب: الجنائز ، باب: الصلاة على الشهيد ، صحيح مسلم ، باب: إثبات حوض نبينا ﷺ .

(2) صحيح مسلم ٣١٦/٢ ، كتاب الفضائل ، باب: إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته .

ولذلك أجراه كثير من الناس على أنه استعارة ؛ لأن صياغته غير مهيأة للتشبيه ؛ لأن المشبه به " فرط " نكرة (وليس من الفصيح فى كلامهم أن تقول: زيد كأسد ؛ لأنه لم يسمع منهم دخول كاف [١] .

التشبيه على نكرة غير محددة ، وهذا الضرب يبعد عن التشبيه قليلاً ليقرب من الاستعارة بمقدار هذا البعد ، وحين تسميه استعارة تكون أعذر ، وأشبه بأن تكون على جانب من القياس ومتشبثاً بطرف من الصواب [٢] ، ولكن لما كان المشبه – الضمير العائد عليه ﷺ – مذكوراً كان اعتبار التشبيه أولى ، حيث شبه ﷺ نفسه فى سبقه أمته إلى الحوض ، وتهيئته لهم بالفرط [٣] ، وإذا كان هذا التشبيه يبين منزلته ﷺ فى الآخرة فهو أيضاً يجسد مدى حبه ﷺ لأمته .

ويلاحظ أن لتعبيره ﷺ " إنى فرط لكم " مستويين ، أحدهما يستتبع الآخر فالأول مستوى مادى حسى يتمثل فى السبق المكانى ، والآخر: مستوى معنوى يتمثل فى السبق الإيمانى والأخلاقى ، فقد جمع الحديث فى باعه بين المستويين ،

---

(١) واستهلال الحديث بضمير التكلم " أنا " لتحديد المسند إليه ، وهو ذاته الشريفة ﷺ لاستدعاء المقام ذلك ، إذ المطلوب تحديد الذات المختصة بهذه المنقبة ، والمطلعة بهذا الأمر العظيم وأثر تقديم المسند إليه لقصد الاختصاص ، لأن الغرض بيان تفرده ﷺ بهذه المنقبة ، يوم القيامة .

(٢) التصوير البيانى د/ محمد أبو موسى ، ص١٩١ ، أما رواية " أنا فرطكم " فتعريف الفرط يقوى جانب التشبيه .

(٣) والفرط فى لغة العرب : الذى يتقدم الوارد ليصلح لهم الحياض والدلاء ونحوهما من أمور الاستقاء ، ومن هذا قولهم فى الدعاء فى الصلاة على الصبى الميت: اللهم اجعله لنا فرطا أى أجراً متقدماً ، وفرط الرجل فى القول: إذا تعجل ، قال تعالى ﴿ إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾ ، ينظر: غريب الحديث لابن سلام الهروى ٢٧٢/١ ط أولى ١٩٧٦م دار الكتب العلمية ، بيروت ، والآية من سورة طه ٤٥ .

وفى الحديث ما يعرف فى البلاغة بـ " الاستتباع " [1] ، لأن كونه ﷺ متقدماً عليهم على الصفة المكانية الحسية المعروفة ، وهم فى طريقهم للاستقاء من الحوض ، يستتبع كونه متقدماً عليهم خلقاً وسلوكاً وسيرة ، وهى صورة بلاغية بلغت المرقاة فى صفة خلقه ﷺ وبيان أفضليته ، وسبق ريادته .

بهذه الصورة البيانية الموجزة ، والمنتزعة من البيئة العربية ، بين ﷺ منزلته بين أمته فى الآخرة ، ومنزلته فى الدنيا معروفة ، وعليه فهو سيد الأولين والآخرين .

٦- فى الحث على لزوم قراءة القرآن والتحذير من تركه

وعندما أراد ﷺ تصوير تفلت القرآن من صاحبه إذا لم يتعاهده ، ويداوم على قراءته ، ويلتزم بتلاوته ومدارسته ، نظر فى أحوال الإبل ، وانتزع منها هذه الصورة التى توضح مراده ﷺ حيث شبه تفلت القرآن من صاحبه إذا لم يتعاهده بكثرة القراءة بتفلت الإبل من عقلها إذا لم يتعاهدها صاحبها بشد رباطها وإحكام عقالها ، فإذا كان التعاهد موجوداً فالحفظ موجود ، كما أن البعير المشدود بعقاله يظل محفوظاً إذا تعاهده صاحبه واطمئن على عقاله ، فإذا أهمله تفلت ، فكذلك القرآن بل هو أشد تفلتا من الإبل المعقلة فـ (عن ابن عمر – رضى الله عنهما– أن رسول الله ﷺ قال: إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة إن عاهد عليها أمسكها ، وإن أطلقها ذهبت) [2] .

---

(1) وهو المدح بشئ على وجه يستتبع المدح بشئ آخر كقول أبى الطيب:

نهبت من الأعمار ما لوحويته لهنئت الدنيا بأنك خالد

الإيضاح تح/ خفاجى ٧٨/٦ .

(2) صحيح البخارى ٦٥٥/٢ حديث رقم ٤٦٤٣ ، كتاب: فضائل القرآن ، باب: استذكار القرآن وتعاهده .

وقد استهل الحديث بـ إنما للإيناس بأن صورة المشبه به من وضوح الصورة ، وكثرة المشاهدة أن يتخيله العربى ولا ينكره ، حتى يترائى للعربى صورة القرآن وهو يتفلت ممن لا يحافظ عليه ويجوز أن يكون التعبير بـ إنما لأن الخبر لم يسبق للمخاطب العلم به ، فعند ذكره بهذه الأداة يقع فى نفسه وقوع المأنوس به ، فلا إنكار ، ولا تنزيل ، وكأن القصر لأهمية الخبر ، وفى ذلك تحذير من التهاون فى قراءة القرآن والمداومة عليه ، حتى لا يكون مصيره كمصير الإبل التى لم يعقلها صاحبها ، ووقعت (مثل) بعدها ، وهذا التركيب من خصوصيات هذا التشبيه دون نظائره ، وكلمة (مثل) تفيد التسوية بين شيئين فى أمر ما ، والتعبير بـ (صاحب القرآن) يشعر بتمكن القارئ من القرآن ، وتملكه له كما يتملك الشئ صاحبه ويتمكن منه ، وهو كناية عمن لازم القرآن بالتلاوة والعمل ، وقوله (كمثل الإبل المعقلة) دخلت الكاف على مشبه به مفرد (مثل) عبر به عن مشبه به مركب ، وعلماء البلاغة حين ينظرون إلى لفظ مركب من الكاف ومثل ، نجدهم يجهدون أنفسهم فى محاولة لإيضاح التشبيه بأداة دون الأخرى ، ويقدرون معنى يتوائم مع ما يذهبون إليه ، والحق أن التركيب جميعه له دور فى التشبيه ، فهو يراعى فيه المثلية ، ولكن ليست المثلية التامة ، فالكاف لها دور فى معنى المقاربة لهذه المثلية ، ولو حذفت إحدى الأداتين لتغير المعنى ، فالكاف وإن كان لها أثر فى التشبيه كما ذكرت ، إلا أنها ليست المرادة فى التشبيه ، وإنما جاء ﷺ فى التشبيه بالإبل دون غيرها من الخيل والحمير والبغال ، وإن كانت جميعاً إذا لم تربط ذهبت وشردت ، لما بين القرآن والإبل من التناسب [1] .

([1]) ومن ذلك أن الإبل تنقاد مع الضعيف والقوى والصغير والكبير والذكر والأنثى ، مع شدة قوتها وعظم خلقها ، والقرآن مع علو قدره وجلال أمره وعجز الخلق عن الإتيان بمثله ميسر منقاد للضعيف والقوى ، والصغير والكبير والذكر والأنثى ، ومن ذلك أن الإبل تحمل الثقل والقرآن يحمل أثقال المذنبين ، فبكل حرف منه عشر حسنات، وكل حسنة تكفر سيئة ومن ذلك أن الإبل هى المعدة

فالنبى ﷺ خص الإبل بالذكر لأنها أشد الحيوان الإنسى نفوراً ، وفى تحصيلها بعد استكمال نفورها صعوبة ، وهذا الأمر مشاهد ملموس للعربى ، فالتشبيه مقتبس من البيئة العربية ، يراه ويشاهده ويعايشه كل من يعيش فى هذه البيئة ، فيتأكد عنده مقصوده ﷺ ، ومن أجل هذه المشاهدة فإن الرسول ﷺ عقد موازنة رائعة بين القرآن فى صدور الرجال وبين الإبل فى عقلها ، فقال: (تعاهدوا القرآن فو الذى نفسى بيده لهو أشد تفصيا من الإبل فى عقلها) [1] فالحديث يبين أن القرآن أسرع فى التفلت من الإبل .. لأن من شأن الإبل تطلب التفلت ما أمكنها ، فمتى لم يتعاهدها صاحبها برباط تفلتت ، فكذلك حافظ القرآن إن لم يتعاهده تفلت بل هو أشد فى ذلك .

قال ابن بطال: (هذا الحديث يوافق الآيتين ، قوله تعالى: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ [2] ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾ [3] فمن أقبل عليه بالمحافظة والتعاهد يسر له ، ومن أعرض عنه تفلت منه) [4] .

وظهرت البلاغة النبوية فى لفت الانتباه إلى الصلة بين صاحب القرآن وصاحب الإبل المعقلة ، فالقرآن يعطى صاحبه ما تقوم به حياته فى جانبها الروحى

لحمل الذين يؤمون البيت الحرام وحمل أثقالهم ، قال تعالى ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ ﴾ [النحل ٧] والقرآن العظيم بقراءة العبد له يناجى ربه ، والإبل أعون شئ إلى إيصال العبد إلى بيت ربه [أثر التشبيه فى تصوير المعنى ، ص١٠٨ ، ١٠٩] .

(1) صحيح البخارى٢/٦٥٥ حديث رقم٤٦٤٣ ، كتاب: فضائل القرآن ، باب: استذكار القرآن وتعاهده.

(2) المزمل الآية ٥ فوصفه تعالى بالثقل ، ولولا ما أعان على حفظه ما حفظوه ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ [القيامة ١٧] .

(3) القمر آية ١٧ .

(4) فتح البارى لابن حجر ١٤/٢٥١ .

، فهو كنزه الذى يحفظ فى صدره ، ويغنيه عن كل ملذات الحياة ، والإبل أنفس ما يمتلكه العربى من النعم ، وذات صلة وثيقة بحياته ومعاشة ، فمنها يأكل وعليها يضرب عرض الصحراء ، وبها يتغنى فى شعره ، والمداومة على قراءة القرآن ومدارسته والبحث عن وجوه معانيه وأحكامه يشبه القيام على أمر الإبل ، وأخيراً وهو منطوق الحديث أن القرآن إذا أهمله صاحبه وأغفل قرائته ، فإنه يتفلت من صدره ، ويتشارد عليه أمره كالغفلة عن هذه الإبل المعقلة يتبعها شرود وهم يقولون: أشرد من بعير ؛ لأن البعير إذا شرد أبعد ، ولا يستطيع صاحبه رده إلا بمكابده .

ونلحظ الدقة فى اختيار الألفاظ المعبرة عن المعانى ، فالتشديد فى (المعقلة) يوحى بالإحكام فى عقل هذه الإبل خوفاً من شرودها ، كما تظهر روعة البلاغة النبوية فى التمثيل المضروب لهذا الأمر ، وهو مستمد من واقع البيئة العربية [1] .

وختم الحديث بهاتين الجملتين الشرطيتين المتقابلتين فى المعنى حثاً على لزوم أحدهما ، وترغيباً فيه ، وتنفيراً من الآخر ، فالمقابلة هنا إلى جانب دورها فى بيان الوجه ، فإنها تثير الانتباه وتوقظ الشعور ، وتأخذ بأيدينا إلى التدقيق فى المعنى المقصود ، فهى هنا ترقى عن هذا المستوى اللفظى الذى يقوم على التضاد بين المعانى اللغوية للكلمات والجمل ، إلى مستوى أرحب من المفارقة التصويرية

([1]) فالذين يستمعون إلى رسول الله يعتمدون على الإبل فى حياتهم ، ويدركون المعنى المقصود من التمثيل ، فكم تكون الإبل جامحة حين تتفلت من عقلها ، فتنطلق ولا ترجع ، وتكون أشد خطراً ، ومعنى هذا أن الذى يغفل عن متابعة القرآن والمداومة على قراءته يهرب من ذاكرته ، ويكون الخطر محدقاً ، قال تعالى ﴿ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴾ [طه ١٢٦] .

التى يبرز فيها التناقض بين الأفكار والأحداث ، ولذا قالوا: " واعلم أن فى تقابل المعانى بابا عجيب الأمر ، يحتاج إلى فضل تأمل وزيادة نظر " [١] .

وأخيراً نقول إن تشبيهه ﷺ القرآن بالإبل التى عليها حياتهم مطعما وملبسا وسكنا وسفرا ، إن شاءوا انتفعوا بها إذا عقلوها ، وإن تركوها نفرت وضلت فضاعوا ، ما يبرز أهمية القرآن ، وضرورة التمسك به .

٧- فى سياق الحديث عن طواعية المؤمن

وعندما أراد ﷺ أن يصور المؤمن فى طاعته ، وانقياده إلى كل ما يكلف به بيسر وسهولة ، وعدم احتياجه إلى زجر أو تعنيف ، نظر فى الإبل وأحوالها ، فوجد ذلك واقعاً وملموساً فى الجمل الأنف فشبهه به ، فـ (عن عبد الرحمن بن عمرو السلمى أنه سمع العرباض بن سارية يقول: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، فقلنا: يا رسول الله إن هذه لموعظة مودع فماذا تعهد إلينا ؟ قال: قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بما عرفتم من سنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ ، وعليكم بالطاعة وإن عبداً حبشيا ، فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما قيد انقاد) [٢] .

وقد بدأ الحديث بوصف الراوى لموعظته ﷺ ، وبيان أثر وقعها وشدتها عليهم (ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب) واستشعر الحاضرون أنها موعظة مودع ، والمودع لا يترك شيئاً مما يهم المودع فيما يحتاج إليه ، لذا طلبوا منه أن يوصيهم (فماذا تعهد إلينا ؟) وجاء السؤال بهذه الصيغة للدلالة على ضرورة تجدد العهد ، والالتزام بسنته جيلاً بعد جيل ، وجاء جوابه واضحاً وضوح

---

(١) الفوائد المشوق المنسوب إلى ابن قيم الجوزية ، ص١٧٠ .

(٢) سنن ابن ماجة ١٦/١ حديث رقم ٤٣ باب: اتباع سنة الخلفاء .

ملته السمحاء ، التى لا يزيغ عنها إلا أصحاب النفوس المريضة ، وأن ثمت اختلافا كثيرا يظهر بين أفراد هذا الدين ، ويوجههم ﷺ إلى الأسلوب الأمثل فى التعامل معه (فعليكم بما عرفتم من سنتى ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضو عليها بالنواجذ) فهو أمر منه بلزوم سنته الثابتة عنه واجبا أو مندوبا ، وكذا لزوم طريقة الخلفاء الراشدين [1] ، وقوله (عضوا عليها بالنواجذ) تأكيد للأمر بلزوم سنته ، وهو كناية عن شدة ملازمة السنة والتمسك بها ، أو كناية عن المحافظة على الوصية بالصبر على مقاساة الشدائد ، وقوله (وعليكم بالطاعة وإن عبدا حبشيا) أى إن استولى عليكم عبد حبشى فأطيعوه مخافة إثارة الفتن ، وهو مثل يضرب بمالا يكاد يصح فى الوجود [2] ، والأمر هنا يحتم أن تكون الطاعة خلقا أصيلا فى المسلم ، ولكى يكشف ﷺ هذه الطاعة ويصورها ؛ كى تكون قريبة للأذهان جاء بهذا التشبيه عقب هذه المعانى السالفة (فإنما المؤمن كالجمل الأنف) ونلحظ أن (إنما) دخلت على معنى هيئت له الجمل السابقة ، فبعد أن ذكر ﷺ جملة من المعانى ممهدة للتشبيه ، أدخل (إنما) على جملة التشبيه ، للدلالة على أن هذا المعنى صار فى حكم المعانى المأنوسة التى تكاد النفس تدركها لإشارة ما قبله إليه .

وقد شبه ﷺ المؤمن فى طواعيته بالجمل الأنف ، وهو الذلول الذى يأنف

---

(1) لأنهم لم يعملوا إلا بسنته ، وكانوا أشد الناس حرصا عليها ، وعملا بها ، وإنما عطف (سنة الخلفاء الراشدين) لما عساه يتردد فى بعض النفوس من الشك فى أمر لم يفعله ﷺ فى زمنه ، وفعله هؤلاء الخلفاء ، والخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، لقوله ﷺ : (الخلافة بعدى ثلاثون سنة) ووصف الراشدين بالمهديين ؛ لأنه إذا لم يكن مهتديا فى نفسه لم يصلح أن يكون هاديا لغيره .

(2) كقوله ﷺ (من بنى لله مسجداً ولو مثل مفحص قطاة بنى الله له بيتاً فى الجنة) .

من الزجر فيعطى ما عنده ، ويسلس قائده ، وهو الأليق ، وقيل: هو الذى عقره الخطام ، إن كان بخشاش أو برة ، أو خزامة فى أنفه ، فهو ليس يمتنع على قائده فى شئ للوجع الذى به [1].

والأصل فى هذا أن يقال: مأنوف ؛ لأنه مفعول به ، كما يقال: مصدور للذى يشتكى صدره ، ومبطون للذى يشتكى بطنه ، وجميع ما فى الجسد على هذا ولكن هذا جاء شاذا عنهم .

والوصف بـ (الأنف) لابد منه لفهم الوجه وتحديده ، إذ لو اقتصر على التشبيه بالجمل لما فهم مراده ﷺ ، وفى ذلك دليل على أن المعتبر من حالات المشبه به الحالة التى يكون عليها عند الوصف ، وهو القدر المشترك بين المشبه والمشبه به ، ولا يشترط أن يكون كمالها فى المشبه به ، بل قد يكون كمالها فى المشبه ، بشرط أن يكون وضوحها فى المشبه به أصرح .

وجملة (حيثما قيد انقاد) قيد تحدد به وجه الشبه من ناحية ، وكشف عن الطواعية المطلقة من ناحية أخرى .

والحديث يشير من طرف خفى إلى قوة المؤمن ، وتكمن قوته فى طواعيته ، وتحمله لكل ما يكلف به ، وهو على هذا ثابت لا يتزعزع ، ومن هنا قال ﷺ : (مثل المؤمن كالخامة من الزرع تفيؤها الريح مرة وتعدلها أخرى

---

(1) ينظر: الفائق فى غريب الحديث والأثر ١٨/١ ، غريب الحديث لأبى عبيد ٢٠/٣ ، تهذيب اللغة ٢١٤/٥ أنف ، قال ابن منظور (قال أبو سعيد: الجمل الأنف الذليل المواتى الذى يأنف من الزجر ، ومن الضرب ويعطى ما عنده عفوا سهلاً ، كذلك المؤمن لا يحتاج إلى زجر ولا عتاب ، ما لزمه من حق صبر عليه وقام به) . لسان العرب ٢٣٧/١ ، أنف ، وقوله (الأنف) من أنف مثل تعب فهو تعب ، رواه أبو عبيد: كالجمل الآنف ، بالمد ، بوزن فاعل وهو بمعناه ، والأول أصح وأفصح ، قال أبو عبيد: والأنف: الذلول ولا أجد أصله إلا من هذا

....) [1] .

وتصوير المؤمن فى طواعيته ويسر انقياده جاء فى حديث آخر فـ (عن مكحول قال: قال رسول ﷺ: المؤمنون هينون لينون كالجمل الأنف إن قيد انقاد ، وإن أنيخ استناخ على صخرة) [2] فهذا الحديث يكشف بوضوح حقيقة المؤمن ، فهو كالجمل الأنف ، فى الطواعية المطلقة ، دون إلحاق نقص به ، وهو تشبيه منتزع من البيئة العربية ، فطواعية الجمل الأنف ظاهرة ملموسة وواقعية ، يدركها كل عربى من خلال تعامله مع الإبل .

٨- فى بيانه ﷺ لحكم الحيوان الإنسى إذا توحش

وعندما أراد ﷺ أن يثبت بطريق القياس حكم الحيوان الوحشى النافر فى الذبح للحيوان الإنسى إذا توحش ، ونفر وشرد أتى بهذا التشبيه ليجلى هذا الحكم ويقرره فى النفوس ، فـ (عن رافع بن خديج قال: قلت يا رسول الله إنا لاقو العدو غداً ، وليست معنا مدى [3] ، فقال: اعجل أو أرن ، ما أنهر الدم وذكر اسم الله فكل ، ليس السن والظفر ، وسأحدثك أما السنّ فعظم ، وأما الظفر فمدى الحبشة ، وأصبنا نهب إبل وغنم ، فند منها بعير فرماه رجل بسهم فحبسه ، فقال ﷺ: إن لهذه الإبل أوابد كأوابد الوحش ، فإذا غلبكم منها شئ فافعلوا به

---

(1) صحيح البخارى ٥٦/٤ حديث رقم ٥٦٤٣ كتاب المرضى ، باب: ما جاء فى كفارة المرض .

(2) فالمؤمنون مبتدأ وهينون خبره ، ولينون خبر بعد خبر ، وجملة " كالجمل الأنف " خبر ثالث ويجوز أن تكون فى محل نصب على أنها صفة لمصدر محذوف تقديره: لينون لينا مثل لين الجمل الأنف ، والحديث فى: شعب الإيمان للبيهقى ١٦٩/١٧ قضل فى لين الجانب .

(3) جمع مدية وهى السكين ، سميت بذلك لأنها تقطع مدى الإنسان أى عمره .

هكذا)[1] .

الحديث يبين مكانته ﷺ فى التشريع الإسلامى ، وقد بدأ بكلام الراوى (يا رسول الله إنا لاقوا العدو غدا [2] ، وليست معنا مدى) – الذى تنوع بين الإنشاء والخبر المؤكد لأهميته ، وجاء الوصل بين جملة (وليست ...) وما قبلها للتوسط بين الكمالين مع عدم المانع ، إذ (يحتمل أن يكون مراده إذا لقوا العدو صاروا بصدد أن يغنموا منهم ما يذبحونه ، ويحتمل أن يكون مراده أنهم يحتاجون إلى ذبح ما يأكلونه ليتقوا به على العدو إذا لاقوه) [3] ، فهو يهدف بهذا إلى معرفة ما يجزئ فى الذبح غير السكين والسيف ، وأدرك ﷺ مراده ، فقال: (اعجل أو أرن) أى أعجل ذبحها وأزهق نفسها بكل ما أنهر الدم غير السن والظفر ، فهما أمران للتوجيه والإرشاد .

وقوله ﷺ (ما أنهر الدم وذكر اسم الله فكل) [4] ما: موصولة مبتدأ ، وجملة (أنهر الدم) صلة ؛ وأل فى (الدم) للعهد ، وقد أغنت عن ذكر المضاف إليه ، وجملة (وذكر اسم الله) أى عليه معطوف على جملة الصلة ، والخبر محذوف دل عليه قوله (فكل) والتقدير: هو حلال ، وإذا ثبت ذلك فكل ، فالفاء ظهرت بلاغتها فى الدلالة على المحذوف ، ويحتمل كون (ما) شرطية ، وجملة (

---

(1) صحيح البخارى ١١٣/٣ ، حديث رقم ٥٠٨٥ ، كتاب: الذبائح والصيد ، باب: ماند من البهائم ، صحيح مسلم ، باب: جواز الذبح بكل ما أنهر .

(2) يحتمل أن يكون حقيقة أو مجازاً أى فى مستقبل الزمان .

(3) فتح البارى ٤٣٧/١٥ ، ويؤيده ما جاء فى حديث آخر من قسمة الغنم والإبل بينهم (.. ثم قسم فعدل عشرة من الغنم ببعير) فكان معهم ما يذبحونه ، وكرهوا أن يذبحوا بسيوفهم لئلا يضر ذلك بحدها والحاجة ماسة له ، فسأل عن الذى يجزئ فى الذبح غير السكين والسيف ، وهذا وجه الحصر فى المدية والقصب ونحوه مع إمكان ما فى معنى المدية وهو السيف .

(4) أى كل ما أسال الدم وصبه بكثرة ، شبه بجرى الماء فى النهر .

فكل) جواب الشرط وعلى كل ففى الكلام إيجاز بالحذف ، والعطف بالواو فى (وذكر اسم الله) أفاد ضرورة اجتماع الأمرين معا الإنهار والتسمية ، لأنه علق الإذن بمجموع الأمرين ، والمعلق على شيئن لا يكتفى فيه بأحدهما ، ثم قال ﷺ: (ليس السن والظفر) بالنصب على الاستثناء ، وبالرفع على حذف الخبر أى ليس السن والظفر مباحاً أو مجزءاً ، ولكى يقع الأمر موقعه فى النفس من القبول أخذ فى بيان ذلك بالتعليل لهذا الاستثناء فقال (وسأحدثك أما السن فعظم) وكل عظم لا يحل الذبح به ، أو لأنها تنجس بالدم ، وقد نهى ﷺ عن تنجيسها لأنها زاد الجن ، (وأما الظفر فمدى الحبشة) وهم كفار ، وقد نهى ﷺ عن التشبه بهم [1]وقيل نهى عنهما لأن الذبح بهما تعذيب للحيوان .

وينتهز الصحابى ربط الحكم الشرعى الذى صدر عن النبى ﷺ بالتطبيق العملى ، حيث يحكى موقفا صدر عن الصحابة يشبه الحكم فيه هذا الحكم (وأصبنا نهب إبل وغنم فند منا بعير فرماه رجل بسهم فحبسه)[2] فجاء الحكم بالقياس، وفى ذلك دليل قاطع على صحة القياس فى الشرع، وعدم العدول عنه إلا بنص، (فقال ﷺ: إن لهذه الإبل أوابد كأوابد الوحش فإذا غلبكم منها شئ فافعلوا به هكذا) وهذا التشبيه قصدﷺ من وراءه إقرار حكم شرعى بطريق القياس، إذ المراد أن الحيوان الأهلى إذا نفر أخذ حكم الوحش النافر فى جواز ذبحه فى أى عضو

---

(1) واعترض عليه بأنه لو كان كذلك لامتنع الذبح بالسكين وسائر ما يذبح به الكفار ، وأجيب بأن الذبح بالسكين هو الأصل ، وأما ما يلحق بهما فهو الذى يعتبر فيه التشبيه لضعفها ، ومن ثم كانوا يسألون عن جواز الذبح بغير السكين وشبهها [فتح البارى ٤٣٧/١٥] .

(2) قال المباركفورى: (المعنى: ما نفر من الحيوان الأهلى من الإبل والبقر والغنم والدجاج كالصيد الوحشى فى حكم الذبح ، فإن زكاته اضطرارية ، فجميع أجزائه محل للذبح) ، قوله " فحبسه " كناية عن إصابته بالسهم ، ونلحظ التعبير بالماضى المسبوق بالفاء العاطفة الدالة على سرعة الأحداث وتتابعها [انظر: أصبنا .. فند ... فرماه ... فحبسه] .

منه [1] .

وقد اشتملت جملة التشبيه فى مستهلها على عدة مؤكدات لتأكيد الحكم وتقريره ، واللام فى (لهذه) بمعنى (من) والإشارة لتعظيم شأن الإبل والتى خصها لمناسبة الموقف ، وجاء اسم إن (أوابد) نكرة ، ويستفاد من كونه نكرة أن يكون الآبد بعضا من الإبل ، وأوابد: جمع آبدة أى غريبة ، يقال: جاء فلان بآبدة أى بكلمة أو فعلة منفردة ، ويقال: أبدت أبدُ أبودا ، ويقال: تأبدت ، أى: توحشت والمراد أن لها توحشا [2] ، وقوله (كأوابد الوحش) الإضافة للبيان ، لأن الوحش كله آبد ، شبه الأوابد من الإبل بأوابد الوحش ، فى النفور والشرود ، والغرض بيان الإباحة فى عقر الحيوان الذى يند ويعجز عن ذبحه [3] .

ثم نلحظ أنه ﷺ لم يجعل الحكم خاصاً بهذه الحالة بل جعله عاما ، فقال (فإذا غلبكم منها شئ فافعلوا به هكذا) أى فاصنعوا به كما صنع الصحابى مع البعير الذى ند وشرد ، والرسول ﷺ بهذا البيان لا يعلمنا اللغة وإنما يعلمنا الحكم وكيفية الاستنباط والقياس ، حيث قاس ﷺ حكم الحيوان الإنسى إذا توحش بالحيوان الوحشى ، وحكم الوحشى كان معلوماً لديهم يمارسونه من واقع بيئتهم التى يعد الصيد فيها حرفة يعتمد عليها فى حياتهم للحصول على الطعام ، وقوله (فإذا غلبكم منها شئ فافعلوا به هكذا) جاء لتحديد مقصود النبى ﷺ من التشبيه ؛ لأنه أراد أن يبين أن الحيوان الإنسى إذا نفر صار حكمه حكم الوحشى فى الزكاة ، لأنه لما كان الوحشى إذا قدر عليه لم يحل إلا بما يحل به الإنسى ،

---

(1) تحفة الأحوذى ١٤٣/٤ .

(2) والآبد: التى تلزم الخلاء فلا تقرب أحداً ، ولا يقربها ، قال أبو عمرو: وقد أبدت الناقة تأبداً وأبوداً إذا نفرت وحدها وتشردت ، وتأبد ، أى: تفرد [شرح ابن بطال ٤٩٢/٩] .

(3) ينظر: أثر التشبيه فى تصوير المعنى ، ص٢٢٤ .

لأنه صار مقدوراً عليه ، فكذلك ينبغى فى الإنسى إذا قدر عليه وامتنع أن يحل بما حل به الوحشى .

بهذا التشبيه المنتزع من البيئة العربية قرر ﷺ حكماً من أحكام الزكاة ، وهو أن الحيوان الإنسى إذا توحش فلم يقدر على قطع مذبحه صار جميع بدنه فى حكم المذبح .

٩- فى بيانه ﷺ لفرحة الله بعبده التائب

وعندما أراد ﷺ أن يصور لنا فرحة الله – الذى لا تضره المعصية ولا تنفعه الطاعة – من عبده ، ويؤكد للمسلمين منزلة التوبة عند الله ، وينبه إلى ضرورة الحرص عليها ، كساها ثوب التشبيه ، وألبسها صورة المألوف عند العرب منتزعة من بيئتهم ، ومستوحاة من حياتهم ، فـ (عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه ، من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته ، فبينا هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدى وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح) [١] .

الحديث يمثل لوحة تصويرية صيغت على شكل قصة سريعة [٢] ، بلغت

---

(١) صحيح مسلم ٤٩١/٢ ، كتاب التوبة ، باب: الحض على التوبة والفرح بها .

(٢) على النحو التالى:

١- مسافر على راحلة فى صحراء موحشة عليها متاعه وزاده .

٢- انفلات الراحلة والبحث عنها حينا ، وبلوغ اليأس مداه ، والاضطجاع ، تحت شجرة محفوفاً مكدوراً بالهموم خائفا من آت مخيف إنه الاستسلام للموت جوعا .

٣- بهذا يصل الحديث إلى قمته ، ويبحث الخيال عن حل لهذه العقدة المثيرة ، ويتابع المسافر فى رحمة وتحزن ، ويأتى البيان بالحل المفاجئ (إذ هى قائمة عنده) حل غير

منزلة كبيرة من التأثير فى نفوس العرب أبناء الصحراء وأصحاب الإبل ، ومكنت هذا المعنى المجرد عندهم ، لأنها حدثتهم عن أمر غيبى بأسلوب هم أكثر الناس إدراكا له ، لأنهم يعيشون فى هذه الأوساط ، وربما تعرض بعضهم لمثل هذه الأزمات ، أو سمع بنبأ من تعرض لها [1] .

وقد صدر الحديث بهذا الجملة الاسمية (لله أشد فرحاً بتوبة ...) وهذه اللام المصدرة هى لام الابتداء ، أو لجواب قسم محذوف ، وهما لفائدة واحدة هى التثبيت للمعنى ، فعلى اعتبارها للابتداء فهى لتوكيد مضمون الخبر مع كونه ﷺ صادقاً مصدوقاً ، وذلك لتعليم الأمة وخصوصاً العلماء أن الأخبار المهمة لابد أن يقدم لها بالتوكيد تمهيداً لإلقاء الخبر ، وعلى اعتبارها لجواب القسم ففيها إفادة بلاغية هى الإيجاز ، وهو من أنواع البلاغة فى الكلام ، والقسم المقدر معها يكون بلفظ الجلالة الذى لا يقسم به إلا فى الأمور المهمة ، لقوله تعالى ﴿ وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ ﴾ [2] ، ثم جاء أفعل التفضيل متبوعا بالمميز (أشد فرحا) وهذا النظم العالى فيه دلالة على أن الفرح درجات ، ويلاحظ فى التعبير تقديم المفضل ابتداء وتلاه المفضل عليه لبيان أن الوصف قد زاد وكمل فى الأول دون الثانى ، كما نلحظ أن التفضيل جاء فى أمر وجدانى وهو الفرح ، فجاء تصويره بتشبيه تمثيلى جميل من حياة العرب ، حيث شبه ﷺ فرحة الله بتوبة عبده ،

متوقع يضطرب معه الخيال والمسافر معا ، وتتزلزل نفسه ، إنه يقفز تلقائيا ليأخذ بخطامها ثم ينطلق لسانه ، ولكن شعوره مازال يغلى إنه يخطئ فيما لا يخطأ فيه ، إنه يريد أن يشكر ربه وحده الذى أنقذه ، وتنقلب الألفاظ لوقوع المفاجأة (اللهم أنت عبدى وأنا ربك) ولكنه غلط محبب ، إن الحديث يعلق بمرح على قصة بدأت بالكرب وانتهت بالفرح (أخطأ من شدة الفرح) [البلاغة النبوية دراسة وتحليل د/ صباح عبيد دراز ، ص٢٦٣] .

(1) التصوير الفنى فى الحديث النبوى ، ص٩١ .

(2) البقرة من الآية ٢٢٤ .

ورجوعه إليه بعد أن اقترف الذنوب والآثام ، وارتكب المعاصى والمنكرات ويئس من النجاة وتحقق من الهلاك ، بفرحة رجل كان فى صحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء ، معه راحلته وعليها طعامه وشرابه ، فنام ، واستيقظ بعد قليل فوجد أنها قد هربت بعيداً عنه وشردت ، واشتد به الجوه والعطش فاعتقد الهلاك ، وفقد الأمل فى النجاة ، وأسلم نفسه للموت ، وفجأة يرى راحلته أمام بصره ، فيهتز فرحا ، وتأخذه النشوة ؛ لأن أمله فى الحياة قد عاد ، وبعده عن الموت قد زاد ، ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من شدة الفرح فى كل ؛ لعودة الأمل بعد اليأس ، والنجاة بعد التحقق من الهلاك ، والسر البلاغى وراء هذا التشبيه هو الإشارة إلى أهمية التوبة ومكانتها عند الله ، حيث تنقذ عباده وتنقيهم من الخطايا ، وتفتح لهم باب الأمل والرحمة وتعيدهم إلى فطرتهم الأولى .

يقول ابن علان الصديقى ت ١٠٠٧ هـ : إنه (تشبيه مركب عقلى ، من غير نظر إلى مفردات التركيب بل تؤخذ الزبدة من المجموع ، فتكون غايته ، ونهايته وفائدته إبرازه فى صورة المشبه ، وتقرير المعنى فى ذهن السامع ، أو تمثيلى بأن يتوهم للمشبه الحالات التى للمشبه به وينتزع له منها ما يناسبه) [1] .

ويؤخذ عليه أنه ميز بين المركب العقلى والتمثيلى وهو بعضه .

وكم كان ﷺ دقيقاً فى ملاحظة عناصر هذا التشبيه ، إنه يصور الصحراء الموحشة ، كما يصور الناقلة لهم فى هذه الصحراء ، والتى تحمل لهم الزاد الذى يعينهم ويحقق أغراضهم ، أليست الحياة مثل هذه الصحراء تتطلب من الإنسان أن يتزود لها حتى يتمكن من عبورها وقطعها بسلام إلى الآخرة ، ثم أليست الذنوب مهلكه للإنسان تقتضى التوبة والرجوع إلى الله تعالى ، إن الحديث يفتح باب الأمل

(1) دليل الفالحين ٩٦/١ ط أولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، دار الريان – القاهرة .

أمام العاصين ليتوبوا إلى الله ، فهو يقبل توبتهم ويبسط لهم من رحمته ، بهذا التشبيه المركب القائم على تصوير المعانى من خلال حياة المخاطبين تمكن مقصوده ﷺ فى النفوس ، وسيبقى هذا التمثيل نافعا للأمة ما دامت السماوات والأرض .

١٠- فى بيانه ﷺ للمشطة الميلاء وعقوبتها

وعندما أراد ﷺ أن يبين عقوبة ما تقوم به بعض النساء من تكبير رأسها بامتشاط الميلاء ، أو بوضع الخرق عليها ، أو وصل شعرهن حتى يظن الرائى أنه كله شعر ، لجأ إلى بيان ذلك الفعل بتصويره بأسنمة البخت ، وهى صورة محسة ومرئية ومنتزعة من البيئة العربية ، فكان لذلك أكبر الأثر فى قوة تصورها ، وإدراكها وثبوتها فى الذهن ، فـ (عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ صنفان من أهل النار لم أرهما ، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات ، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا) [١] .

هذا الحديث من معجزات النبوة ، فقد وقع هذان الصنفان وهما موجودان وفيه ذم هذين الصنفين [٢] وبدأ الحديث بلفظ (صنفان) وهو معنى مجمل مبهم يحتاج إلى تفصيل وإيضاح ، فأخذت النفس تتطلع إلى بيان هذا الإبهام وتفصيل ذلك الإجمال ، وزاد من تطلعها وتشوقها ما فى التعبير من وصف (من أهل النار لم أرهما) [٣] والبيان والتفصيل إذا جاء وتلك حال المخاطب ثبت بها واستقر ، لأنه

---

(١) صحيح مسلم ٢٥٤/٢ ، كتاب : اللباس والزينة ، باب: النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ٢٤٤/٧ .

(٣) أى لم يوجد فى عصرى لطهارة ذلك العصر بل حدثا بَعْدُ .

جاء وهى مهيئة لتلقيه مترقبة له ، ثم شرع ﷺ فى البيان ، والإتيان بالعدد فى صدر الكلام ثم تفصيله لون من الإطناب يسمى (التوشيع) وبعض البلاغيين قصره على المثنى [١] لكن الغالب أنه يأتى فى الجمع أيضاً [٢] ، وفائدته أنه يثير تشوق السامع إلى معرفة تفصيل ما أجمل فى العدد ، وقوله ﷺ (قوم معهم سياط ...) بحذف المسند إليه قال النووى: (فأما أصحاب السياط فهم غلمان والى الشرطة) [٣] والسياط: جمع سوط ، كأذناب البقر ، تسمى فى ديار العرب بالمقارع جمع مقرعة ، وهى جلد طرفها مشدود ، عرضها كالأصبع ، وقوله (يضربون بها الناس) أى ممن أتهم بنحو سرقة ليصدق فى إخباره بما سرق ،

ويتضمن ذلك أن ذينك الصفتين سيوجدان ، وكذلك كان) [٤] .

وقوله (ونساء كاسيات عاريات) بحذف المسند إليه أيضاً ، والتقدير ، وثانيهما، والمعنى: (كاسيات من نعمة الله عاريات من شكرها ، وقيل معناه: تستر بعض بدنها ، وتكشف بعضه إظهاراً للحال أو الجمال أو مواضع الفتنة ، وقيل: تلبس ثوبا رقيقاً يصف لون بدنها) [٥] ، وقوله (مميلات مائلات) [١] ، المعنى:

---

(١) تحرير التحبير ، ص٣١٦ ، الإيضاح تح/ خفاجى ١٩٩/٣ .

(٢) مواهب الفتاح ٢١٦/٣ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ٢٤٤/٧ .

(٤) فإنه خلف بعد الصدر الأول قوم يلازمون الشرطة المعروفون بالجلادين ، فإذا أمروا بالضرب تعدوا المشروع فى الصفة والمقدار ، وربما أفضى بهم الهوى وما جبلوا عليه من المظالم إلى إهلاك المضروب أو تعظيم عذابه ، وقد ضاهى أعوان الوالى جماعة من الناس سيما فى شأن الأرقاء ، وربما فعل فى عصرنا بعض من ينسب إلى العلم ، قال القرطبى: وبالجملة هم سخط الله عاقب الله بهم شرار خلقه [فيض القدير ٢٧٥/٤] .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووى ٢٤٤/٧ ، وقيل: كاسيات من الثياب ، عاريات من فعل الخير

مائلات عن طاعة الله ، وما يلزمهن حفظه ، ومميلات يعلمن غيرهن فعلهن المذموم ، أو مائلات متبخترات فى مشيتهن ، مميلات لأكتافهن ، أو مائلات يتمشطن المشطة الميلاء ، وهى مشطة البغايا ، مميلات يمشطن غيرهن تلك المشطة ، ولا يخفى أثر الطباق بين (كاسيات عاريات) وكذا الجناس الاشتقاقى بين (مائلات – مميلات – مائلة) مما يدل على ميل هؤلاء النسوة عن الحق [٢] .

والاهتمام لآخرتهن والاعتناء بالطاعات .

([١]) وفى رواية (مائلات مميلات) وحق مائلات أن يتقدم ؛ لأن ميلهن فى أنفسهن متقدم الوجود على إمالتهن ، وصح ذلك ؛ لأن الصفات المجتمعة لا يلزم ترتبها ألا ترى أنها تعطف بالواو وهى جامعة لا مرتبة [فيض القدير ٤/٢٧٥] .

([٢]) ينظر: أثر التشبيه فى تصوير المعنى ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

وقوله (رؤسهن كأسنمة البخت المائلة) قيل معناه: أن يكبرنها ويعظمنها بلف عمامة أو عصابة ، أو نحوهما حتى تشبه أسنمة الإبل البخت [1] وهو تصوير دقيق لهؤلاء النسوة وقد فعلن فيها ما فعلن ، والمشبه به أسنمة البخت المائلة ، والوجه العظم والميل ، (والغرض من التشبيه وصف المشبه المفيد لتحقيره والتنفير منه ، وهناك براعة فى التشبيه فالسنام أعلى شئ فى البخت ، وكذلك الشعر المرفوع أعلى شئ فى المرأة) [2] حيث إن المشطة الميلاء (هى ضفر الغدائر وشدها إلى فوق ، وجمعها فى وسط الرأس ، فتصير كأسنمة البخت ، وهذا يدل على أن المراد بالتشبيه بأسنمة البخت إنما هو لارتفاع الغدائر فوق رؤسهن ، وجمع عقائصها هناك ، وتكثيرها بما يضفرنه حتى تميل إلى ناحية من جوانب الرأس كما يميل السنام) [3] .

فالرسول ﷺ عندما أراد أن يصور مشطة البغايا عمد إلى هذا التشبيه المنتزع من البيئة لكشف هذه المشطة وبيانها وتصويرها فى صورة أكثر وضوحا فشبهها بسنام الإبل ، وخص البخت المائلة لعظم سنامها ، والإبل البخت بسنامها لا تخفى على أحد ، فالقصد إلى التصوير وتقريب المعنى لا غير ، إذ ليس فى أسنمة البخت عيب ، لأن الله خلقها على ذلك ، إنما العيب فى الإنسان حين يخرج عن هيئته التى خلقه الله عليها إلى هيئة ليست له [4] ، والدليل على ذلك أن عظم

---

(1) قال النووى: (هذا هو المشهور فى تفسيره ، وقال المازرى: ويجوز أن يكون معناه يطمحن إلى الرجال ولا يغضضن عنهم ولا ينكسن رؤسهن) .

(2) التصوير الفنى فى الحديث النبوى ، ص١٨٠ .

(3) قال ابن دريد: يقال: ناقة ميلاء إذا كان سنامها يميل إلى أحد شقيها [صحيح مسلم بشرح النووى ٩/٢٤٠] .

(4) ومن ذلك قوله تعالى ﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ فصوت الحمير فى نفسه ليس منكراً ، لأنه خلقه الله هكذا ، وإنما المنكر هو فعل الإنسان عندما يفعل هذا المنكر .

السنام محمدة فى الإبل ، إذ هو خيار ما فيها .

ويختم ﷺ حديثه بما يعرف عند البلاغيين بـ رد العجز على الصدر ، المتضمن لعقوبة هذا الفعل المنكر ، فقد بدأ ﷺ حديثه بقوله (صنفان من أهل النار) وختمه بقوله (لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ...) وهو يحتمل أن لا يدخلن الجنة أبداً ، لأن فاعلة ذلك استحلت حراماً مع علمها بتحريمه ، فتكون كافرة مخلدة فى النار ، كما يحتمل أنها لا تدخل الجنة أول الأمر مع الفائزين [1] وفى حديث آخر يخبر ﷺ أن فعلها هذا محبط للعمل: (إذا رأيتم اللاتى ألقين على رؤسهن مثل أسنمة البعير فأعلموهن أنه لا تقبل لهن صلاة) [2] .

١١- فى بيانه ﷺ لنقص فى الصلاة يوجب فسادها

وعندما أراد ﷺ أن يصور لنا فساد الصلاة ، وبطلانها بنقصانها عن التمام إذا خلت من قراءة الفاتحة ، نظر فى أحوال الإبل وانتزع منها ما يكشف عن مراده ، حيث صور فساد الصلاة الناقصة بخلوها من قراءة الفاتحة بإلقاء الناقة ولدها قبل التمام ، وهو – كما هو معروف –نتاج فاسد ، فـ (عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهى خداج – ثلاثا – غير تمام ..) [3] .

الحديث يبين قيمة الفاتحة فى الصلاة ، وجاء فى أسلوب شرطى مرتكز على مكونات الشرط ، فهناك أداة الشرط ، وجملة فعل الشرط والجواب ، وترجع بلاغة التعبير إلى اختيار الكلمات التى تؤدى المعنى بدقة وشمول ، فعلى سبيل التحقيق عبر بـ (من) دون غيرها لإفادة التكليف والتنوع ؛ لأنها وضعت فى اللغة

---

(١) فيض القدير ٤/٢٧٥ .

(٢) قال ابن العربى (وهذا كناية عن تكبير رأسها بالخرق حتى يظن الرائى أنه كله شعر وهو حرام) [فيض القدير ١/٤٦٣] .

(٣) صحيح مسلم ١/٢١٦٨ ، كتاب الصلاة ، باب وجوب قراءة الفاتحة فى كل ركعة .

للعقلاء ، ومن هنا جاءت لتعبر عن طبيعة وصفات القائم بعمل الفعل الواقع بعدها ، كذلك أفاد التعبير بها العموم والشمول ، وينبغى الإشارة إلى أن الصياغة هنا تتراوح باعتبار الإمكان الدلالى بين الموصولية والشرطية ، بيد أن الموصولية تصرف دلالة الحديث إلى الخبرية المحضة ، وهذا تضييق لأفق الدلالة فالأولى جعلها شرطية ، لأنها حينئذ تحرك الدلالة من الخبرية إلى الإنشائية ليصبح الحديث أمراً جليا منه ﷺ بوجوب قراءة الفاتحة فى كل صلاة .

وقوله ﷺ (صلى صلاة) جملة فعل الشرط ، والجناس الاشتقاقى له أثره فى الدلالة على كون الصلاة صلة بين العبد وربه ، والتنكير فى (صلاة) للعموم ، فيشمل الفرض والنفل ، والمقصود بالصلاة هنا المعنى الشرعى لا اللغوى (لما تقرر من أن ألفاظ الشارع محمولة على عرفه ، لكونه بعث لتعريف الشرعيات لا لتعريف الموضوعات اللغوية) [1] .

وجملة (لم يقرأ فيها بأم القرآن) صفة لـ (صلاة) الغرض منها بيان نوع هذه الصلاة التى يترتب عليها ما يعقبه من الجزاء ، فليس الأمر مطلق صلاة وأتى بأداة النفى (لم) للتأكيد على خلو هذه الصلاة من قراءة الفاتحة تماماً ، و(أم القرآن) اسم الفاتحة [2] ، وسميت بذلك لاشتمالها على مقاصد القرآن

---

(1) تحفة الأحوذى ١/٢٨١ .

(2) لما ثبت عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ (الحمد لله رب العالمين أم القرآن ...) سنن الدرامى ٢/٤٤٦ .

كله[1] .

وقوله (فهى خداج) جواب الشرط ، وجاء مقترنا بالفاء لأنه جملة اسمية [2] والخداج: النقصان ، يقال: خدجت الناقة إذا ألقت ولدها قبل أوانه ، وإن كان تام الخلق ، وأخدجته إذا ولدته ناقص الخلق ، وإن كان لتمام الحمل [3] والمراد من إلقاء الناقة ولدها لغير تمام الحمل وإن تم خلقه إسقاطها ، والسقط ميت لا ينتفع به ، فظهر من هذا أن قوله (فهى خداج) أنها ناقصة نقص فساد وبطلان ، قال أبو عبيد: أخدجت الناقة إذا أسقطت والسقط ميت لا ينتفع به [4] .

فالحديث اشتمل على تشبيه بليغ ، فـ (المشبه الصلاة التى لم يقرأ فيها بأم القرآن " الفاتحة " والمشبه به الناقة التى ألقت ولدها قبل تمام الأيام " خداج " ووجه الشبه النقصان فى كل وعدم انتفاع صاحبه به ، والتشبيه دقيق يعرف مقدار دقته وإصابته كل عربى عاش فى تلك البيئة .. وهو تشبيه منتزع من البيئة " الإبل " وهى من المنازع التى شاعت فى الحديث النبوى ، لأن العربى أفقه الناس بها ، وهى أكثر الحيوانات اقترانا به ، فلا تند عنها واحد منهم صغيرا أو كبيراً ، وفى هذا

---

(1) ففيها الثناء على الله جل وعلا ، وفيها إثبات الربوبية ، وفيها التعبد بأمر الله ونهيه ، وفيها طلب الهداية والثبات على الإيمان ، وفيها الأخبار عن قصص الأمم السابقين ، وفيها الإطلاع على معارج السعداء ومنازل الأشقياء إلى غير ذلك فهى كالأم بالنسبة لبقية السور الكريمة ، والعرب تسمى كل أمر جامع أما [تفسير آيات الأحكام للصابونى ١٣/١ ، ط الصابونى] .

(2) قال الإمام الخطابى: (يعنى ناقصة نقص فساد وبطلان ؛ تقول العرب: أخدجت الناقة إذا ألقت ولدها وهو دم لم يستبن خلقه فهى مخدج والخداج اسم مبنى منه) ، عون المعبود ٣٢٣/٢ ، تحفة الأحوذى ٢٨١/١ .

(3) تحفة الأحوذى ٢٨١/١ .

(4) تحفة الأحوذى ٢٨١/١.

ما يتناسق مع وظيفة التشبيه النبوى ، فهو تبيان وهداية تمتزج فيه المتعة البيانية بالفائدة العلمية ، والهدى الإيمانى ، ... وطرفا التشبيه متباعدان [1] : الصلاة والناقة ، ولكن الرسول ﷺ عقد بينهما مقارنة بقوة نفاذه فى صميم الأشياء ، والشبه بينهما قائم على علاقة بينة) [2] .

ومجئ جملة جواب الشرط (فهى خداج) اسمية فيه دلالة على أن هذا التشبيه لا يحتمل غير هذا الوجه الذى جاء عليه ، فإذا تحقق الشرط كان هذا الجواب ولم يكن غيره ، والحديث تنبيه بليغ على ركنية الفاتحة فى الصلاة ، وأنها متعينة فى كل ركعة على الإمام والمأموم المنفرد ، ولا يجزئ غيرها إلا لعاجز عنها ، وهذا مذهب مالك والشافعى وجمهور العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم [3] وقال أبو حنيفة ﷺ وطائفة قليلة : لا تجب الفاتحة بل الواجب آية من القرآن لقوله ﷺ: " اقرأ ما تيسر " ورد بأنه محمول على الفاتحة لأنها ميسرة أو على ما زاد على الفاتحة بعدها ، أو على من عجز عن الفاتحة [4] ، قال المباركفورى: (وفيه فرضية قراءة الفاتحة فى كل صلاة ، وأن الصلاة إذا لم يقرأ فيها الفاتحة فهى ناقصة نقص فساد وبطلان ، لأن الخداج: النقصان

---

(1) يقول الإمام عبد القاهر: " ومبنى الطباع وموضوع الجبلة على أن الشئ إذا ظهر من مكان لم يعهد ظهوره منه ، وخرج من موضع ليس بمعدن له كانت صبابة النفس به أكثر وكان الشغف منها أجدر " أسرار البلاغة ، تح/ شاكر ، ص١٣١ .

(2) أثر التشبيه فى تصوير المعنى ، ص٧٥ وما بعدها .

(3) واستندوا إلى: ١- قوله ﷺ: " لا صلاة إلا بأم القرآن " فإن قالوا: المراد: لا صلاة كاملة ، قلنا: هذا خلاف ظاهر اللفظ ٢- قولهﷺ: " لا تجزئ صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب " .

(4) يراجع: صحيح مسلم بشرح النووى ١٢٨/٢ ، تحفة الأحوذى ٢٨١/٢ " وزعم الحنفية أن قوله (خداج) يدل على جواز الصلاة ؛ لأنه النقصان ، والصلاة الناقصة جائزة ، وهذا تحكم فاسد " عون المعبود ٣٢٣/٢ ، تحفة الأحوذى ٢٧١/١ .

والفساد)[1] .

١٢- فى بيانه ﷺ لبعض الأساليب التربوية التعليمية (القياس)

وعندما أراد ﷺ أن يستل الشك من قلب أعرابى تجاه مولود له يخالفه فى اللون ، نظر فى أحوال الإبل ، وانتزع منها ما يلائم المقام ، فمثل مخالفة المولود لوالده فى اللون بمخالفة بعض الإبل الورقاء أصلها من الإبل الحمر ، فـ (عن أبى هريرة أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله ولد لى غلام أسود ، فقال: هل لك من إبل ؟ قال: نعم ، قال: ما ألوانها ؟ قال: حمر ، قال: هل فيها من أورق ؟ ، قال: نعم ، قال: فأنى ذلك ؟ قال: لعله نزعه عرق ، قال: فلعل ابنك هذا نزعه) [2] .

الحديث جاء فى قصة قصيرة ، اعتمدت على حوار بينه ﷺ وبين هذا الأعرابى الذى اعتراه شك تجاه مولوده الذى يخالفه فى اللون ، وقد استهل الأعرابى حواره بهذا النداء الذى يشعر بمدى اهتمامه بالأمر وانشغاله به ، ورغبته الصادقة فى الوصول إلى الحقيقة ، وجملة (ولد لى غلام) خبرية ، ليس الغرض منها ظاهر معناها ، وإنما المراد الإنكار ، لأنه أراد: ولد لى غلام أسود ، وأنا غيره فى اللون فكيف ذلك ؟ ولهذا جاءت عبارته تحمل بنظمها عدة دلالات ، فبناء الفعل للمجهول يؤمى إلى انصباب الحديث على هذا الحدث الهام بالنسبة له وتقديم الجار والمجرور يوحى بشدة وقع هذا الأمر عليه ، فالمولود من زوجته التى فى عصمته ، ومجئ (غلام) نكرة ؛ لأن المقام غير صالح للتعريف ، والوصف (

---

(١) ومن ذلك قولهم: أخدجت الناقة وخدجت إذا ولدت قبل تمام وقتها وقبل تمام الخلق ، وذلك نتاج فاسد [تحفة الأحوذى ١/٢٧١] .

(٢) صحيح البخارى ٣/٦٣ حديث رقم ٤٨٩٣ ، كتاب النكاح ، باب: إذا عرض بنفى الولد ، صحيح مسلم ، كتاب اللعان .

أسود) جاء تدرجاً فى الكشف عن مقصوده ، ولم يقل: وأنا أبيض ؛ لأن الحال مغنية عنه ، ففيه اكتفاء ، والأسلوب فى جملته يوحى بتقذره من زوجته ، وشدة غضبه ، ولم يقم ﷺ عليه حد القذف بهذا التعريض الذى يوحى به كلامه ؛ لأنه لم يرد قذف امرأته أو النقصية لها ، وإنما جاء سائلاً مستفتياً عن الحكم لما وقع فيه من الريبة ، فلما كشف له الأمر أذعن [1] .

وبعد أن قال الأعرابى مقولته أدرك النبى ﷺ مقصوده ، ولم يعمد معه إلى الإجابة المباشرة ، وإنما سأله ، وتدرج معه فى الأسئلة حتى وصل إلى اليقين الذى كان ينشده ، وهذه الطريقة تعد من خصائص بلاغته ﷺ ، وهى من الأساليب التربوية والتعليمية التى سبق بها ﷺ المعلمين ، فقد ابتدره ﷺ بهذا السؤال (هل لك من إبل ؟) وإذا كان المسئول أعرابياً ، وهو لا غنى له عن الإبل ، تبين أن المقصود ليس حقيقة السؤال ، بل (له الكثير من وجوه التميز والفضل ، ففيه لفت للمخاطب عن المضمون المباشر لكلامه ، وفيه تهدئة لانفعاله ، وفيه صرف لذهنه إلى مجال التمثيل الحسى والتقريب باستخدام ما يناسبه من الأمثلة الواقعية التى يعيشها ويلمسها ، وفيه استخدام صيغة الاستفهام التى تتيح للمخاطب فرصة التفكير ، والمشاركة الذهنية للوصول إلى نتيجة منطقية) [2] ، ثم انتقل به ﷺ إلى سؤال ثان عن ألوان هذه الإبل ، وهو نوع من التدرج فى استدراج المخاطب كى يقر ويعترف فهو أشبه بمجاراة الخصم ، وفى ذلك (تمهيد لعقل المخاطب لتقبل ما يلقى عليه من الحكم المتعلق بذلك ، وفى السؤال الذى تلا ذلك كله تقريب شديد للحقيقة التى يبحث عنها الرجل ، وفى الانتقال إلى السؤال الأخير فى هذه السلسة المتصلة طلب لإجابة هى بمثابة الحكم العقلى الموصل إلى نقطة التقاء البدء والانتهاء ،

---

(1) ينظر: فتح البارى لابن الحجر ١٤٢/١٥ ، شرح ابن بطال ٤٦٨/١٣ .

(2) الخصائص البلاغية واللغوية فى أسلوب الحديث الشريف ، ص١٠١ .

وهى فى الوقت نفسه بمثابة وضع الحل المقنع فى هذا الأمر ، أضف إلى ذلك ما تميز به الأسلوب من قدرة على استدراج المخاطب نحو وضع الحل بنفسه ، ومساعدته على الخلاص من تردده وشكه ، ذلك فضلا عما يتميز به هذا الأسلوب من بناء المعانى بعضها على بعض فى شكل أجزاء متصلة بنى فيها اللاحق على سابقة فى إطار التطور والنمو الموصل لها إلى نقطة دلالية واحدة تتناهى لديها مجموعة المعانى السابقة) [١].

وفى إجابة الأعرابى على السؤال الأخير بقوله (لعله نزعه عرق) أصل النزع الجذب ، وقد يطلق على الميل ، والعرق الأصل من النسب ، شبهه بعرق الشجرة ، ومنه قولهم: فلان عريق فى الأصالة أى أن له أصل متناسب ، والمعنى: يحتمل أن يكون فى أصولها ما هو باللون المذكور فاجتذبه إليه فجاء على لونه [٢] .[٢]

وفى قوله ﷺ رداً على إجابة الأعرابى (فلعل ابنك هذا نزعه) جاء اسم لعل ظاهراً ، وجاء خبرها جملة فعلية ، وهذا التركيب ورد بقلة فى الحديث الشريف [٣] ، بهذا الأسلوب التربوى التعليمى الذى بنى على مجموعة من الأسئلة المتصلة ، والتى أعقبها بهذه الجملة التى تعد بمثابة النتيجة التى انتهى إليها الأمر ، انتهى ﷺ بالأعرابى إلى تشبيه حاله مع زوجته وما نتج عنهما من ولد يخالفه لونا ، بتلك الحال للإبل الحمر التى نتج عنها جمل أورق يخالفها فى اللون فهى صورة

---

(١) الخصائص البلاغية واللغوية فى أسلوب الحديث الشريف ، ص١٠١ ، ١٠٢ .

(٢) وفى رواية (لعل نزعه عرقاً) أى: لعل عرقاً نزعه ، قال الصغانى: ويحتمل أن يكون فى الأصل: لعله ، فسقطت الهاء ، ووجه ابن مالك باحتمال أنه حذف منه ضمير الشأن ، ويؤيده توجيهه ما وقع فى الرواية الأولى وادعى الداودى أن لعل هنا للتحقيق [يراجع: فتح البارى ٤٤٣/٩، شواهد التوضيح والتصحيح، تح/ محمد فؤاد عبد الباقى ، ص١٤٨ مكتبة دار العروبة].

(٣) بناء الجملة فى الحديث النبوى الشريف ٢٦٤ .

تشبيهية مركبة قامت على القياس المفيد الذى لا يرتاب فيه أحد ، حتى ولو كان الأعرابى ، وهى نزع الجمل إلى عرق من آبائه ، وأجداده ، وكلما كان هناك استناداً إلى المألوف كان أدعى للقبول [1] .

هكذا عن طريق هذه الصورة البيانية المعتمدة على القياس ، والمنتزعة من البيئة العربية استطاع ﷺ أن ينتزع الشك والتردد من قلب الأعرابى ، حيث وصل به إلى الحقيقة التى لا شك فيها .

١٣- فى بيانه ﷺ لفضل التبكير إلى الجمعة

عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فكأنما قرب بدنة ...) [2] .

وعن أبى عبد الله الأغر عن أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ : (إذا كان يوم الجمعة وقفت الملائكة على باب المسجد يكتبون الأول فالأول ، ومثل المهجر كمثل الذى يهدى بدنة ...) [3] .

الحديث فيه الحض على الاغتسال للجمعة والتبكير إليها ، وفيه بيان لترتب درجات السابقين على من يليهم فى التبكير إلى الجمعة ، وقد بُنى الحديث على الأسلوب الشرطى حيث تكرر الجواب وتنوع تبعا لتكرر الشرط وتنوعه ، وجاءت (مَنْ) أداة للشرط فى جمل الحديث لتفيد معنى العموم والشمول ، فقوله فى الجملة الأولى – وهى موضع الدراسة – (من اغتسل يوم الجمعة) أى لها فى وقت غسلها ، وهو من الفجر إلى الزوال (غسل الجنابة) بنصب (غسل) على أنه نعت لمصدر محذوف أى غسلا كغسل الجنابة فى الصفة أى فى العموم والإسباغ لا

---

(١) التصوير الفنى فى الحديث النبوى ، ص٥١٨ .

(٢) صحيح البخارى ٢١١/١ حديث رقم ٨٣٢ ، كتاب: الصلاة ، باب: فضل الجمعة .

(٣) صحيح البخارى ٢٢١/١ حديث رقم ٨٧٧ ، كتاب الصلاة ، باب: الاستماع إلى الخطبة يوم الجمعة

فى الوجوب ، فالتشبيه للكيفية لا للحكم وهو قول الأكثر وهو كقوله تعالى ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ [1] ، واختلفوا فى معنى غسل الجنابة ، فقال قوم: كغسل الجنابة وهو المشهور ، وتشهد لذلك رواية (فاغتسل أحدكم كما يغتسل من الجنابة) وقال آخرون: هو حقيقة ، إذ يستحب له أن يواقع زوجته ليكون أغض لبصره ، وأسكن لنفسه فى الرواح إلى الصلاة ، ولا تمتد عينيه إلى شئ يراه ، وفيه حمل المرأة أيضاً على الاغتسال ذلك اليوم ، ثم نجد عطف جملة (ثم راح) على جملة فعل الشرط لتفيد ترتب الجواب على حصول الأمرين معاً ، وجاء العطف بـ ثم التى تفيد الترتيب والتراخى لما يمكن أن يقع بعد الغسل ، وقبل الرواح من السواك واستعمال الطيب وغير ذلك ، وقوله (ثم راح) قال الإمام الخطابى: معناه قصدها وتوجه إليها مبكراً قبل الزوال [2] (والنكتة فى التعبير بالرواح الإشارة إلى أن الفعل المقصود إنما يكون بعد الزوال ، فيسمى الذاهب إلى الجمعة رائحاً ، وإن لم يجئ وقت الرواح كما سمى القاصد إلى مكة حاجا) [3] .

وزيد فى بعض الروايات (فى الساعة الأولى) واختلف العلماء فى الساعات المذكورة فى الحديث ، فذهب البعض إلى أنها ساعات حقيقية ، وأنها تبدأ من أول طلوع الشمس ، وهذا قول الكوفيين والشافعى ، وأجاز الشافعى البكور إليها قبل طلوع الشمس ، وقيل هذه الأوقات كلها ساعة واحدة ، كأنه قسم الساعة التى يحين فيها الرواح للجمعة أقساماً ، فسماها ساعات على معنى التشبيه والتقريب ، كما يقول القائل: قعدت ساعة وتحدثت ساعة ونحو ذلك يريد جزءاً من الزمان غير

---

(1) النمل من الآية ٨٨ .

(2) عون المعبود ٣٩٦/١ .

(3) فتح البارى ٢٨٥/٣ .

معلوم ، وهذا على سعة مجاز الكلام وعادة الناس فى الاستعمال [١] .

وقوله (فكأنما قرب بدنة) جاءت الفاء للربط بين فعل الشرط والجواب ، واستخدام (كأن) هنا أبلغ من غيرها فى الاستعمال ، لأن المراد شدة المقاربة ، ولا فرق فى استعمالها مشددة النون أو مخففة ، وسواء اتصلت بها (ما) أو لم تتصل فى إفادتها التشبيه ، ونلحظ هنا دخول (ما) الكافة عليها مهيئة لوقوع الفعل بعدها ، واجتماع الكاف مع أن مؤذن بالزيادة فى معنى التشبيه ، يقول الإمام عبد القاهر: " فانظر هل كانت الزيادة وهذا الفرق [٢] إلا بما توخى فى النظم وترتيبه حيث قدم الكاف إلى صدر الكلام وركبت مع أن " [٣] .

وقوله (قرب بدنة) أى تصدق ببدنة متقربا إلى الله تعالى ، والبدنة: البعير ذكراً كان أو أنثى والهاء فيها للوحدة لا للتأنيث ، وسميت بذلك لعظمها وسمنها من البدانة وهى كثرة اللحم ، قال الزمخشرى: (سميت لعظم بدنها وهى الإبل خاصة) [٤] ، والمراد أن للمبادرة فى أول ساعة نظير ما لصاحب البدنة من الثواب ممن شرع له القربان ، لأن القربان لم يشرع لهذه الأمة على الكيفية التى كانت للأمم السابقة [٥] ، وهذا المعنى تؤيده الراوية الثانية (ومثل المهجر كمثل الذى يهدى بدنة) فالمراد بالتهجير هنا التبكير ، والمهجر : اسم فاعل من هجر يهجر إذا بكر وأتى الأمر من أوله ، ومنه الحديث (لو يعلمون ما فى التهجير لاستبقوا إليه) أى التبكير إلى كل صلاة ، فالرسول ﷺ يشبه ثواب الذى يبكر إلى

---

(١) ينظر: تحفة الأحوذى ٣٧/٢ ، عون المعبود ٣٩٦/١ .

(٢) يقصد الفرق بين أن تقول: زيد كالأسد ، وكأن زيداً كالأسد .

(٣) كتاب دلائل الإعجاز ، تح/ شاكر ، ص٢٥٨ .

(٤) الكشاف ٣٣/٣ .

(٥) تحفة الأحوذى ٣٧/٢ .

الجمعة بثواب من تقرب إلى الله ببدنة فى عظيم العمل ، وجليل المثوبة ، والتشبيه هنا منتزع من البيئة ، وواقع فى موقعه ، لأن المعتبر كبر الجسم فى البدنة مع كونها أحب أموال العرب وأنفسها عندهم ، ومن ثم كثرة اللحم وأطيبه ، وهذا مناسب للغرض (١) .

١٤- فى بيانه ﷺ لموقف الناس من الدنيا وزينتها

وعندما أراد ﷺ أن يصور موقف الناس من الدنيا وزينتها ، وأنهم فريقان منهم من ينبهر بالمال ويحرص على جمعه ، ولا يبالى هل هو من حلال أو من حرام ، ولا يؤدى حق الله فيه ، فيكون ذلك سببا فى هلاكه بدخول النار ، ومنهم من يجمع الطيب من المال ويعمل على الاستفادة منه ، فيؤدى حق الله فيه فينجو من الهلاك ، عندما أراد ذلك نظر إلى الإبل من جهة طعامها ، وما تتنشى به من أنواعه ، فوجد أن منها ما يأكل كل ما وجد أمامه دون تمييز فتصاب بالحبط ، ومنها مالا ينبهر بأطايب الربيع ، فتأكل ما اعتادت عليه فتسلم ، وهذه هى آكلة الخضر ، فأخذ ﷺ منها تشبيها لمن ينبهر بالمال ، فلا يحسن التصرف فيه فيهلك وتشبيها لمن أوجد ضابطا لنفسه تجاه هذا المال فـ (عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ : إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض قيل: وما بركات الأرض ؟ قال: زهرة الدنيا ، فقال له رجل: هل يأتى الخير بالشر ؟ فصمت النبى ﷺ حتى ظننا أنه ينزل عليه ثم جعل يمسح عن جبينه ، فقال: أين السائل ؟ قال: أنا أبو سعيد : لقد حمدناه حين طلع ذلك ، قال: لا يأتى الخير إلا بالخير ، إن هذا المال خضرة حلوة ، وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبطا أو يلم ، إلا آكلة الخضر أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس فاجترت

(١) ينظر: فيض القدير ١/٥٤١ .

وثلطت وبالت ، ثم عادت فأكلت ، وإن هذا المال حلوة ، من أخذه بحقه ووضعه فى حقه فنعم المعونة هو ، ومن أخذه بغير حقه كان كالذى يأكل ولا يشبع) [١] .

يقرر الرسول ﷺ فى هذا الحديث أن المال ليس خيراً مطلقاً ، كما أن نبات الربيع ليس به قوام الحيوان على الدوام ، إنما هو خير من وجه دون وجه ، والحديث يشير إلى صورتين من التمثيل ، الأولى صورة الإنسان المفرط فى جمع المال ، الطامع فيه الذى لا يبالى فى جمعه هل هو من حلال أو من حرام وكذلك لا يؤدى حق الله فيه ، فيكون ذلك سببا فى هلاكه بدخوله النار يوم القيامة ، وهو فى هذا يشبه الماشية التى لا تقتصد فى مراعيها ، بل تستلذ المرعى ، وتستكثر منه حتى تنتفخ لذلك بطونها ، ولا يخرج عنها ما فيها فيكون ذلك سببا فى هلاكها ، وقد أشار ﷺ إلى هذه الصورة بقوله (وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبطا) قال أبو هلال العسكرى: (هو مثل ضربه ﷺ لمن أُعطى من الدنيا حظاً فألهاه الانشغال به ، والاستكثار منه ، والحرص عليه ، ومجانبة القصد فيه عن إصلاح دينه ، فيكون فيه هلاكه ، كما أن الماشية إذا لم تقتصد فى مراعيها حبطت بطونها فماتت أو كادت) [٢] قال ابن منظور فى شرح هذا المثل: (هو مثل الحريص فى الجمع والمنع ، وذلك أن الربيع ينبت أحرار العشب التى تحلو لها الماشية فتستكثر منها حتى تنتفخ بطونها وتهلك ، كذلك الذى يجمع الدنيا ، ويحرص عليها ، ويشح على ما جمع حتى يمنع ذا الحق حقه منها ، يهلك فى الآخرة بدخول النار واستيجاب العذاب) [٣] .

وجملة هذا المثل فيها أمور من دقة العبارة وبلاغتها ، فقد جاءت شارحة

---

(١) صحيح البخارى ، باب: ما يحذر من زهرة الدنيا .

(٢) كتاب جمهرة الأمثال ٢٠/١ ، ط أولى دار الكتب العلمية – بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

(٣) لسان العرب ٢٣/٣ حبط .

وموضحة لقوله ﷺ : (إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض) فهذه جملة غريب معناها ، لما يشوبها من مفارقة غير مألوفة ؛ لأنها لم تجعل الخوف مما يألف الناس الخوف منه ، فلم يقل ﷺ : إن أكثر ما أخاف عليكم الفقر أو العدو أو المرض .. وإنما قال: أخاف عليكم من النعمة والثروة ، ولنتأمل المناسبة بين الربيع الذى فى المثل ، وبركات الأرض فيما سيق المثل له [١] وفى قوله (أنبت الربيع) الربيع: قيل هو الفصل المشهور ، وقيل هو الجدول أو النهر الصغير المنفجر عن النهر الكبير ، وإسناد الإنبات إليه مجازى ، إذا المنبت فى الحقيقة هو الله ، قال الإمام/ عبد القاهر: (أثبت الإنبات للربيع وذلك خارج عن موضعه من العقل) [٢] ، وقوله (يقتل حبطا) حبطا: منصوبة على التمييز ، والحبط : وجع يأخذ البعير فى بطنه من كلأ يستوبله ، وهو انتفاخ البطن من كثرة الأكل ، يقال: حبطت الدابة تحبط حبطا إذا أصابت مرعى فأمعنت فى الأكل حتى تنتفخ فتموت ، قال الجوهرى: (الحبط: أن تأكل الماشية فتكثر حتى تنتفخ لذلك بطونها ولا يخرج عنها ما فيها) [٣] .

والصورة الثانية من التمثيل فى الحديث صورة الإنسان الذى يجمع من المال ما يحتاج إليه ، ويعمل على الاستفادة منه ، ويؤدى حق الله فيه ، فينجو من الهلاك ، وهذا يشبه آكلة الخضر التى تأكل حتى إذا شبعت اكتفت ، واستقبلت الشمس ، فاجترت وبالت ، أو ثلطت ، فزال عنها الانتفاخ فسلمت ، ثم عادت فرتعت ، فهى بهذا ناجية من الهلاك ، وهذه الصورة أشار إليها ﷺ بقوله (إلا آكلة الخضر أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس فاجترت وسلطت وبالت ثم

---

(١) ينظر: شرح أحاديث من صحيح البخارى د/ محمد أبو موسى ، ص٢٤٩ .

(٢) أسرار البلاغة تح/ شاكر ، ص ٣٨٥ .

(٣) الصحاح ١١٢/١ .

عادت فأكلت) وفى هذا المثل أيضا أمور من دقة العبارة وبلاغتها ، منها قوله (إلا آكلة الخضر) فالاستثناء إما منقطع أى لكن آكلة الخضر أنتفع بأكلها ، فإنها تأخذ الكلأ على الوجه الذى ينبغى ، وإما متصل مفرّع على الإنبات أى يقتل الأكل إلا آكلة الخضر ، والحاصل: أن ما ينبته الربيع خير لكن مع ذلك يضر إذا لم يستعمله الأكلة على وجهه ، وإذا استعمله على وجه لا يضر فكذلك المال [1] ، وآكلة الخضر: هى بهيمة الأنعام التى ألف المخاطبون أحوالها فى سومها ورعيها وما يعرض لها من البشم وغيره ، والخضر: النبات الأخضر ، وقيل:" حرار العشب التى تستلذ الماشية أكله فتستكثر منه ، وجملة (أكلت حتى ... فأكلت) وصف لابد منه ، إذ ليس المستثنى كل من اتصف بأنه آكله الخضر ، وقوله (أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها) كناية عن الشبع [2] ، ولنا أن نتأمل التعبير بالفعل (أكلت) واتباعه بـ (حتى) وذلك إشارة إلى طول زمن الأكل ، وجعل له غاية يصل إليها (امتدت خاصرتاها) حيث لم يقل: شبعت ، وكأنه يريك خاصرتيها وقد عظما من الأكل ، ثم انظر إلى المتابعة الدقيقة لأحوالها (استقبلت الشمس فاجترت) أى استرفعت ما أدخلته فى كرشها فأعادت مضغه ، فالرسول لم يكتف بقوله (استقبلت الشمس) ولكن قال (فاجترت) ليدلك على أنها تدقق فى جلب النفع ودفع الضر ، ومن المتابعة أيضا (وثلطت وبالت) ومعنى ثلطت أى ألقت الثلط ، وهو الرجيع الرقيق ، ولدقة المتابعة عطف (وبالت) على (ثلطت) مع أن البول غالبا يكون مع الثلط ، والمعنى: أنها إذا شبعت فثقل عليها ما أكلت تحيلت فى دفعه بأن تجتر فيزداد نعومة ، ثم تستقبل الشمس فتحمى بها فيسهل خروجه ، فإذا خرج زال الانتفاخ فسلمت ، وهذا بخلاف من لم تتمكن

(1) حاشية السندى على سنن ابن ماجة ٣٦٤/٧ .

(2) والخاصرتان: تثنية خاصرة ، وهما جانبا البطن من الحيوان .

من ذلك فإن الانتفاخ يقتلها سريعا [١] .

بهذا الأسلوب البيانى البليغ ، وهذه الصور المنتزعة من البيئة العربية استطاع ﷺ أن يبين لنا حقيقة الدنيا ، وموقف الناس منها .

١٥- فى بيانه ﷺ اهلاك يأجوج ومأجوج

وعندما أراد ﷺ أن يصور لنا الطير التى يرسلها الله فى آخر الزمان لتحمل جثث يأجوج ومأجوج بعد هلاكهم بفسادهم ، عمد إلى بيانها بصورة محسة فنظر فى الإبل ، وانتزع من هيآتها صورة تتناسب مع ما أراد أن يصوره ، فشبه هذه الطيور بأعناق الإبل البخت ، وصورة المشبه به لا تخفى على المخاطبين ، فوقع التشبيه موقعه فى قلوبهم فـ (عن النواس بن سمعان الكلابى ، قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع ...) إلى أن قال عن يأجوج ومأجوج [٢] (قال: ويهبط عيسى وأصحابه فلا يجد موضع شبر إلا وقد ملأته زهمتهم ونتنهم ودماؤهم ، قال: فيرغب عيسى إلى الله وأصحابه ، قال: فيرسل الله عليهم طيراً كأعناق البخت ، قال: فتحملهم فتطرحهم بالمهبل ....)[٣].

فالحديث خبر عن أمر غيبى يقع فى آخر الزمان ، والأسلوب الخبرى أنسب الأساليب للحكاية ، والرسول ﷺ فى سياق حديثه عن الدجال يتحدث عن يأجوج

---

(١) يراجع: فتح البارى ٢٣٨/١٨ ، شرح أحاديث من صحيح البخارى ٢٥١ ، ٢٥٢ .

(٢) فيقولون: لقد قتلنا من فى الأرض فهلم فلنقتل من فى السماء فيرمون نشابهم إلى السماء فيرد الله عليهم نباشهم محمراً دما ، ويحاصر عيسى بن مريم وأصحابه حتى يكون رأس الثور يومئذ خيراً لأحدهم من مائة دينار لأحدكم اليوم ، قال: فيرغب عيسى بن مريم إلى الله وأصحابه ، قال: فيرسل الله إليهم النغف فى رقابهم فيصبحون فرسى موتى كموت نفس واحدة .

(٣) الجامع الصحيح للترمذى ٤٤٣/٤ ، وما بعدها ، حديث رقم ٢٢٤٠ ، كتاب: الفتن ، باب: ما جاء فى فتنة الدجال .

ومأجوج ، وقد بلغ من فسادهم أن قالوا: (لقد قتلنا من فى الأرض فهلم فلنقتل من فى السماء) وهلم: اسم فعل أمر أى تعال ، والخطاب لأميرهم وكبيرهم أو عام غير مخصوص بأحدهم [1] ، ويتحول الأمر من القول إلى فعل (فيرمون بنشابهم إلى السماء) أى بسهامهم ظنا منهم أنهم يصلون إلى مرادهم ، فترد نشابهم فى صورة وكأنها أنجزت مقصودهم (فيرد الله عليهم نشابهم محمرا دما ويحاصر عيسى وأصحابه فى جبل الطور حتى تبلغ به الفاقة إلى أبعد الحدود ، حيث (يكون رأس الثور يومئذ خيراً لأحدهم من مائة دينار لأحدكم اليوم) وإنما ذكر رأس الثور ليقاس البقية عليه فى القيمة ، وعندئذ يرغب عيسى وأصحابه إلى الله لإهلاكهم وإنجائهم من مكابدة بلائهم ، ويضرعون إليه سبحانه فيستجيب لهم فيهلكهم بالنغف [2] ، وبعدها ينزل عيسى وأصحابه موضع هلاكهم (فلا يجد موضع شبر إلا وقد ملأته زهمتهم ونتنهم ودماؤهم فيرغب عيسى إلى الله وأصحابه ، قال: فيرسل الله عليهم .... بالمهبل) ونلحظ العطف بالفاء للدلالة على سرعة الأحداث وتتابعها (فيقولون ... فلنقتل ... فيرمون .... فيرد ..... فيرغب .... فيرسل .... فيصبحون .... فتحملهم فتطردهم بالمهبل) أى الهوة الذاهبة فى الأرض ، والتشبيه فى قوله " طيراً كأعناق البخت " أى طيراً أعناقها فى الطول والكبر كأعناق الإبل البخت ، وهى نوع من الإبل [3] ، فالمشبه الطير المرسلة لحمل جثث يأجوج ومأجوج ، والمشبه به أعناق البخت ، والبخت: نوع جيد من أنوع الإبل يقال إنها الإبل الخراسانية ، فإذا كان السامع لا يعرف هذه الطيور فإنه يعرف البخت ، بل هى

---

(1) وهلم فيه لغتان فأهل الحجاز يطلقونه على الواحد والاثنين والجمع والمؤنث بلفظ واحد مبنى على الفتح ، وبنو تميم تثنى وتجمع وتؤنث تقول: هلم وهلمى وهلما وهلموا .

(2) وهو دود يكون فى أنوف الإبل والغنم ، الواحدة نغفة .

(3) تحفة الأحوذى ٦/٢٥ .

ماثلة أمام عينيه يشاهدها ، ويتأمل أعضاءها ومن هنا يقع التشبيه موقعه من القصد إلى بيان المشبه ، وتقرير صورته فى الذهن وتقريبها ، ولم يشبه ﷺ هذه الطير بالبخت ، وإنما شبهها بأعناق البخت ، وهذا أمر فى غاية الدقة والإصابة ، لأن سرعة سير الإبل يظهر فى أعناقها ، ومن باب الاستطراد لا من باب المقارنة نقول: كثر فى كلام البلاغيين والنقاد الحديث عن الأبيات التى جاء فيها: وسألت بأعناق المطى الأباطح [1] .

قال الإمام عبد القاهر: " قال بأعناق المطى ولم يقل بالمطى لأن السرعة والبطء يظهران غالباً فى أعناقها ، ويبين أمرهما من هواديهما وصدورها " [2] ، ووجه الشبه يحتمل أن يكون الحجم ، ويحتمل أن يكون السرعة ، والأليق ، بالسياق أن يكون السرعة [3] .

([1]) وهى لكثير عزّة وفيها:

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسألت بأعناق المطى الأباطح

([2]) أسرار البلاغة ، تح/ شاكر ، ص٢٣ .

([3]) أثر التشبيه فى تصوير المعنى ٣١٦ ، ٣١٧ .

خاتمة

بعد هذه الدراسة حول التشبيهات بالإبل وأحوالها فى الحديث الشريف يمكن رصد النتائج التالية:

١- أوضح البحث ثقافته ﷺ البيئية التى تؤكد أنه ﷺ لم يكن منعزلاً عن بيئته بل كان متصلاً بها ، وعلى دراية واسعة بكل ما فيها ، ووظف ذلك كله فى الكشف عن المعانى التى أرادها .

٢- أكد البحث أنه ﷺ كان يستمد من البيئة ما يمكن أن يكشف عن مراده ؛ لأن مشاهد البيئة تنطبع فى النفس ، حتى إذا تحولت الأفكار وارتبطت بالصور البيانية ، استيقظت الانطباعات النفسية ، فجسدت الأفكار وأخرجتها إلى الذهن ، وكأنها صور محسة ، فكان لها وقعها على النفس .

٣- أكد البحث أن التشبيه النبوى الوارد فى ثوب القصة له غرض نبيل ، وغاية سامية ، ففيه العظة والعبرة والحث والتوجيه ، كما أن عناصره ممتلئة بيانا وبلاغة ، بخلاف غيره من تشبيهات الأدباء فإنها قد تجئ لمجرد التسلية .

٤- أوضح البحث أن التشبيه النبوى ليس وحده الأساس الذى يلفت الانتباه فى بلاغة الحقيقة ، لكن يضاف إليه بلاغة التركيب ، ومن ثم فإن البحث فى التشبيه النبوى هو بحث فى الكيفية الأسلوبية التى تحققت بها الدقة والإحكام ، وليس هناك من شك فى أن هذه غاية تعليمية بالدرجة الأولى تهدف إلى الإيضاح والإفهام .

٥- لوحظ فى تشبيهاته ﷺ بالإبل وأحوالها أنها أحياناً تجمع بين طرفين متباعدين ، كما أنها تنقل النفس من المعقول إلى المحسوس ، ومن الأمر

الغيبى إلى الحسى المشاهد وهى أمور من أبرز أسباب تأثير التشبيه فى النفس .

٦- أن المتأمل فى هذه التشبيهات يلمح ظاهرة الاستطراد ، حيث يستطرد ﷺ فى بيان ملابسات مقصودة تتعلق بالمشبه به ، ومن ثم تنعكس على المشبه لتحديده فى حالة هى المقصودة.

٧- كشف البحث عن بلاغته ﷺ فى بيان الملاءمة والمناسبة الدقيقة بين عناصر طرفى التشبيه فيما أتى به من تشبيهات ، حيث يأتى ﷺ بالطرفين من جنسين مختلفين متباعدين ، فيقرنهما ويعقد بينهما معاقد نسب وتقارن ، وهو نهج قرآنى ، وفى ذلك دلالة على أنه ﷺ يستمد بلاغته من بلاغة القرآن ، وهو مما أكسبها تأصيلاً وأثراً فى وجدان المسلم .

٨- وأخيراً فإن تشبيهاته ﷺ بالإبل وأحوالها جاءت فى موقعها ، وأدت الغرض على أتم ما يكون ، ومن يستعرض هذه التشبيهات وغيرها ويمعن النظر فيها يدرك عصمة صاحبها من الزلل فى استعمال الوسيلة فلا نقد فى تشبيه ، ولا إخفاق فى تمثيل ، ولا جموح فى عبارة ، ولا إسفاف فى دلالة ، لأن شيئاً من ذلك إنما يكون عند نقص الشعور أو الالتباس فى المعنى ، أو الجهل باللغة ، وهو ﷺ معصوم من ذلك .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

أهم المصادر والمراجع

١- أثر التشبيه فى تصوير المعنى د/ عبد البارى طه ط أولى ١٩٩٢م .

٢- الإشارات والتنبيهات لعلى الجرجانى تح/عبد القادر حسين ط نهضة مصر.

٣- الإيضاح فى علوم البلاغة للخطيب القزوينى ط دار الجبل – بيروت .

٤- البلاغة القرآنية د/ محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة .

٥- بناء الجملة فى الحديث النبوى د/ عودة خليل ط ثانية ١٩٩٤م دار البشير ، الأردن .

٦- تحرير التحبير لابن أبى الأصبع ، تح/ حفنى شرف ط م ع للشئون الإسلامية .

٧- تحفة الأحوذى للمباركفورى ط أولى ١٩٩٨ دار إحياء التراث – بيروت .

٨- التصوير البيانى د/ محمد أبو موسى ط رابعة ١٩٩٧م مكتبة وهبة .

٩- التصوير الفنى فى الحديث النبوى لمحمد الصباغ ط أولى ١٤٠٩هـ ط المكتب الإسلامى .

١٠- تفسير آيات الأحكام للصابونى ط الصابونى .

١١- تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ط الدار التونسية للنشر .

١٢- الجامع الصحيح للترمذى ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .

١٣- الحيوان للجاحظ ط ثالثة ١٩٦٩م المجمع العلمى – بيروت .

١٤- الخصائص البلاغية واللغوية لأسلوب الحديث الشريف لفتحية العقدة ط الأمانة .

١٥- الرحلة فى القصيدة الجاهلية د/ وهبة رومية ط ثالثة ١٩٨٢م مؤسسة الرسالة – بيروت .

١٦- سنن الدارمى ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .

١٧- سنن أبى داود ط ثالثة ١٩٨٣م مطبعة الحلبى .
١٨- سنن ابن ماجة تح/ فؤاد عبد الباقى ط دار إحياء التراث ١٩٧٥م .
١٩- شرح أحاديث من صحيح البخارى د/ أبو موسى ، مكتبة وهبة .
٢٠- شروح التلخيص ط دار السرور – بيروت .
٢١- الصحاح للجوهرى تح/ أحمد عبد الغفار ط دار العلم للملايين .
٢٢- صحيح البخارى ط أولى ٢٠٠١ دار التقوى للتراث ، مؤسسة الهدى .
٢٣- صحيح مسلم ط دار الكتب العلمية – بيروت .
٢٤- صحيح مسلم بشرح النووى ط دار إحياء التراث .
٢٥- الصراع بين الإنسان والطبيعة د/ محمد الكومى ط الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٩م .
٢٦- العمدة لابن رشيق تح/ محى الدين ط خامسة ١٤٠١هـ دار الجيل .
٢٧- عون المعبود لمحمد شمس الحق أبادى ط ثالثة ١٩٦٨م المكتبة السلفية .
٢٨- غريب الحديث والأثر لابن سلام ط أولى ١٩٧٦م دار الكتب العلمية – بيروت .
٢٩- فتح البارى لابن حجر ط أولى ١٩٨٦م دار الريان .
٣٠- الفوائد المشوق المنسوب لابن قيم الجوزية ، مكتبة المتنبى – القاهرة .
٣١- فى ظلال القرآن للشيخ/ سيد قطب ، ط دار الشروق .
٣٢- فيض القدير للمناوى ط دار الحديث – القاهرة .
٣٣- قراءة فى الأدب القديم د/ محمد أبو موسى ط مكتبة وهبة .
٣٤- الكامل للمبرد تح/ محمد أبو الفضل ط نهضة مصر ١٩٨١م .
٣٥- كتاب أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى تح/ شاكر ط المدنى .

٣٦- كتاب جمهرة الأمثال لأبى هلال العسكرى ط أولى ١٩٨٨م دار الكتب العلمية .
٣٧- كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى تح/ شاكر ط المدنى .
٣٨- الكشاف للزمخشرى ط دار عالم المعرفة .
٣٩- لسان العرب لابن منظور ط دار ثالثة ١٤١٩هـ دار إحياء التراث .
٤٠- المثل السائر لابن الأثير تح/ فخر الدين ط المكتبة العصرية – بيروت .
٤١- المعجم الأوسط للطبرانى تح/ الطحان ط أولى١٤١٥هـ مكتبة المعارف .
٤٢- نقد الشعر لقدامة بن جعفر تح/ خفاجى ط دار الكتب .
٤٣- نيل الأوطار للشوكانى ط أولى ١٣٥٧هـ المطبعة العثمانية بمصر .